سلوى مرجان

صباح النساء

الطبعة الأولي مايو ٢٠١٩

الكتاب : صباح النساء

المؤلف : سلوي مرجان

تدقيق لغوي : محمد حلمي

تصميم الغلاف : محمد درباله

رقم ايداع: 13896

دار مسار للنشر و التوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ش - أبو الدهب - قسم يوسف بيك -
الزقازيق - الشرقية

سلوي مرجان

صباح النساء

مسار
للنشر و التوزيع

رائع هو الحمام , فهو المكان الوحيد الذى أشعر فيه أنى عظيم , مُسيطر على الوضع , أناقش فيه مع نفسى أهم الأمور . . . أما بعد . . . يتحدث إليكم من داخل الحمام مراسلكم (كوكة) أقصد كريم , أنسوا أنى نطقت كلمة كوكة , هذا هو الاسم السخيف الذى يطلقه علي نساء البيت , أنا أحيا بمأساة فكلهن هنا نسوة, و ما أدراك ما النساء .

أنا كريم أشرف التاجى أبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما بمعنى أنا رجل , أقسم أنى رجل , لقد خط شاربى و كذلك نبتت لحيتى , و خشن صوتى , و لا داعى لذكر البقية , المهم أنى رجل . . . .

و المصيبة أنى أحيا ببيت النساء و هن لا يشعرن بوجودى على الإطلاق , يتعاملن و كأنهن مجتمع نسوى خالص و لا يفرق لديهم وجود رجل مثلي معهم , سوف أتحدث إليكم عن هؤلاء النسوة الآن ,أمى السيدة فدوى مازالت شابة في الخامسة و الثلاثين, طلقها أبى منذ عشر سنوات و تزوج بأخرى , و هي السيدة مادلين التي تحيا معنا أيضا بالمنزل بعدما طلقها أبى فاتحدت مع أمى و صارت صديقتها و لأنها لبنانية و ليس لديها عائلة بمصر فكان القرار أن تعيش معنا هي الأخرى , جدتى العجوز الغامضة

التي لا تنطق إلا فيما ندر , خالتى رقية التي تمت الخامسة و عشرين عاما منذ أيام و هي أجمل واحدة بالمنزل , و أخيرا عمة أمى و هي سيدة أعمال لديها مصنع تملكه و تديره , و قد ورثته عن زوجها الذى لم تنجب منه أطفالا .

ما يجمع كل هؤلاء النسوة كراهيتهم الشديدة للرجال , لذا يطلقون علي كوكة و ينادوننى و كأنى أنثى , بمعنى أن أمى في الصباح عندما تيقظنى تقول لى (استيقظى يا حبيبتى موعد المدرسة) ,(هيا يا جميلتى تدريب البالية اقترب) , (اسرعى يا صغيرتى لقد حان موعد العشاء) ... وهكذا .

سأضطر لقطع الحديث الآن فسأذهب مع أمى للميكانيكى لإصلاح العربة ,و أوافيكم بالجديد في لقاء آخر , كان معكم من الحمام مراسلكم كو. . . كريم التاجى .

حول مائدة العشاء التف الجميع باستثناء رقية التي كانت ما تزال بغرفتها , فطلبت فدوى من الخادمة التي كانت تضع الطعام أن تستعجل رقية , و بعد دقائق نزلت رقية و هي تضع قبعة الثلج فوق رأسها و ترمومتر بفمها , و تتقصع بمشيتها مرتدية شورت قصير و بلوزة صغيرة بدون أكتاف . . . . ارتمت رقية على الكرسى الخاص بها و فردت ساقيها للأمام وأغمضت عينيها , فسألتها أمها : كم هي حرارتك ؟

لم تجب رقية و أشارت إلى الترمومتر بفمها , فأجابت فدوى نيابة

عنها : انتظرى يا أمى حتى تقيس الحرارة .
ضحكت العمة و هي تنظر لرقية و قالت : أليس هذا هو حديث كل شهر ؟ لقد صرنا نعرف مواقيت الدورة الشهرية لرقية بمجرد ارتفاع درجة حرارتها التي لن تتجاوز الثمانية و الثلاثين بأى حال من الأحوال .
اعتدلت رقية في جلستها وهي تخرج الترمومتر من فمها و تنظر لعمتها باستياء و تقول بهدوء: وما الذى يضايقك في الأمر يا عمتى ؟
رفعت عمتها حاجبها و هزت كتفيها بلامبالاة و قالت : لا يضايقنى شيء , لكن الجميع دائما ينتظرك بنفس الطريقة كل شهر , ثم تهبطين الدرجات و أنت تتبخترين و على رأسك الثلج و في فمك الترمومتر , بمعنى لا جديد .
مطت رقية شفتها السفلى و نظرت لأمها التي قالت موجهة الكلام لعمة بناتها : لا تنتظريها يا ماجدة , لا أحد يطلب منك ذلك .
أخيرا تحدثت مادلين في محاولة منها لتلطيف الأجواء بينهم : لقد قابلتنى اليوم السيدة كاميليا و أخبرتنى أنها ستقوم بإرسال الدعوات لنا لحضور حفل الربيع .
ظهر السرور على وجه فدوى و قالت : كم أعشق تلك الحفلة و أنتظرها كل عام .
وافقتها مادلين بإيماءة من رأسها , في حين زفرت العمة ماجدة

بضيق و قالت : حفلة تتطلب النزول لشراء ثوب و حذاء جديد, و ليس لدى الوقت لهذا .
و هنا قفزت رقية واقفة و صاحت بفرحة و كأنما تذكرت شيئا: رائع سأرتدى الفستان الأحمر الذى اشتريته منذ شهرين و لم ألبسه حتى الآن .
قالت عمتها باستهزاء : هذا يناسب حالتك تماما .
أشاحت رقية بوجهها بعيدا عن عمتها و اقتربت من أمها لتضع قبلة على خدها و قالت : أمى أريد أن أشترى حذاء جديدا لتلك المناسبة .
هزت أمها رأسها موافقة و قالت و هي تنظر للعمة من طرف عينها : عيونى يا حبيبتى , لك ما تشائين .
أخيرا تكلم كريم الذى كان يتابع كعادته في صمت و قال : أرجو أن تنتبهوا قليلا لوجودى , أنا لن أذهب لتلك الحفلة .
نظرت له أمه بدهشة و قالت : لماذا يا حبيبتى ؟ سيكون هناك العديد ممن هم في مثل عمرك .
وضع كريم يده على خده و عوج فمه و قال ساخرا : و هل سأجد شابا يراقصنى يا أمى ؟
نظرت له أمه بذهول و قالت : شابا يراقصك ؟ هل جننت يا كوكة ؟!
قام كريم من مكانه واستدار كعارضة أزياء و قال وهو يسير

متقصعا : ما رأيك في جمال جسدى ؟ هل سيليق بى الثوب الضيق أم المنفوش ؟

ثم وضع يده على صدره و قال : يالا حظى التعيس صدرى صغير لذا لن أرتدى ثوبا يكشفه , سأكتفى بكشف ذراعى .

و هنا أطلقت رقية ضحكات مجلجلة , في حين صاحت أمه به و قالت : لقد جننتِ بالفعل .

أما مادلين فقامت من مكانها و اقتربت منه في حنو و سألته : ما الذى يغضبك يا كوكة ؟

أمسك كريم بكوب على مائدة الطعام و رماه بقوة على الأرض و هتف بغضب : أنا رجل , رجل أيتها النسوة معدومى الفهم و الإحساس , رجل و اسمى كريم و ليس كوكة , و أقسم أنه إن نادانى أحد مرة أخرى بكوكة فلن أرد عليه .

ثم تحرك نحو الدرجات بغضب و صعد درجتين ثم وقف و قال لأمه : و لن أذهب تدريب البالية , من الغد سألعب كرة القدم .

و بعدما صعد لغرفته قالت رقية موجهة الكلام لأختها : ما الذى أصابها ؟

أشاحت فدوى بيدها و قالت : دعك منها , كل فترة ينتابها تلك الحالة .

نظرت لهما عمتهما و قالت بغيظ : أقسم أنكما نسوة مشكوك بقدرتكما العقلية , إنه رجل يا نساء , رجل أيتها المعقدات .

و هنا أطلقت الجدة ضحكة ساخرة و قالت : هن معقدات من أبيهم , الذى هو أخوكى , و أنتِ ألست معقدة من زوجك الذى خانك مع كل نساء الأرض ؟!
بدا الغضب على ماجدة و قالت بصوت مرتفع : نعم أكره كل الرجال و لا أطيق عبورهم حتى بجوارى , و لكن ما ذنب ذلك المسكين الذى تعاملوه كأنثى , أنتم تتحدثون أمامه في أمور النساء و كأنه واحد منا .
ثم نظرت لفدوى و قالت متوسلة : ارحمى ابنك يا فدوى هو لا ذنب له فيما حدث لنا , إنه ضحية هو الآخر , عامليه كرجل .
أدارت فدوى وجهها و قالت و هي تنظر لمادلين : هل نعامله بطريقة سيئة يا مادلين ؟
صمتت مادلين لوقت تحاول التفكير فيما يجب أن يقال حتى لا تخسر أي من الأطراف , ثم قالت بحرص : هو ابنك يا فدوى , و من المؤكد أنك لن تفعلى ما يضره .
نظرت ماجدة لها بغضب و قالت : ما هذه النعومة التي تتحدثين بها يا مادلين ! الدبلوماسية ليست في كل الأمور .
هنا نظرت مادلين لماجدة و علت وجهها ابتسامة هادئة و هي تقول : حبيبتى ماجدة الأمور تؤخذ بالحكمة فلن تخافى على ابنها أكثر منها .
نهضت ماجدة من مكانها بغضب و قالت : لعنة الله على النساء

و الرجال معا .
ثم تركتهم و صعدت لغرفتها , بقيت الجدة صامتة لوقت ثم طلبت من رقية أن تسندها حتى تصل لغرفتها .
في صباح اليوم التالى كان كل شيء يسير بصورة طبيعية , حتى كريم عاد لهدوءه و تقبل أن يناديه الجميع بكوكة و كأن لم يحدث شيء بالأمس , لكن العمة ماجدة كانت تشعر بالألم من أجله فأشارت له ليعطيها الملح القريب من يده و هي تقول : إذا سمحت يا كريم الملح من فضلك .
نظر لها بدهشة و فتح فمه و لم ينطق , فأعادت عليه الكلام فابتسم و هو ينظر بخوف إلى أمه و لكنه مد يده و أعطاها الملح, بينما رمتها فدوى بنظرة ضيق شديدة , في حين تجاهل البقية الموقف و لزموا الصمت .
بعد الإفطار جلست رقية في الحديقة تحت المظلة و بدأت تدهن يديها و ساقيها بالمرطب و هي ترتدى نظارتها الشمسية و تدندن أغنية فرنسية قديمة , جاءت مادلين و جلست بجوارها تطالع مجلة نسائية في صمت , توقفت رقية بعد دقائق عن الغناء و سألت مادلين : أنتِ أكثر واحدة لديها خبرة عن الرجال , لقد تزوجتِ ثلاث مرات , أخبرينى هل الرجال مختلفون عن بعضهم, أما أنهم جميعا كأبي ؟
أبعدت مادلين المجلة و وضعتها على المنضدة المجاورة و قالت و

هي تبتسم و تنظر بعيدا : الرجال . . . . جميعهم صنف واحد , لكنه يستهوى النساء .
سألتها رقية بفضول : كيف ؟
اتسعت ابتسامتها و قالت : إن المشكلة تكمن فينا نحن النساء , نبحث عن المستحيل , و هم أشخاص عاديون , نطلب من الرجل أن يدللنا ليل نهار , و يهتم بعمله ليربح ربحا كبيرا , و ينتبه لكل تفصيلة جميلة بنا , و يعمى في نفس الوقت عن أي عيب لا نرغب في إظهاره , نطلب منه الصدق الشديد معنا , في حين أنه لو أخطأ مرة و جاء ليعترف اعترف نُعلق له المشنقة , و نتمنى أن يكون شديد التملق معنا , و ربما لو تملقنا طيلة الوقت لزهدنا فيه , إننا النساء تعيسات بعقولنا التي لا يعجبها شيئا .
تأففت رقية و قالت و هي تشير بإصبعها لمادلين : تحبين الرجال يا مادلين و تلتمسين لهم الأعذار .
ضحكت مادلين و قالت : كيف لا أحبهم و هم يعطوننى إحساسا لا يمكننى الشعور به و لو جلست ملكة بين ملايين النساء .
قطبت رقية حاجبيها و سألت : و ما هذا الشعور ؟
فركت مادلين ذقنها بأناملها الرقيقة و قالت و هي ما زالت مبتسمة : إن احتواء رجل يحبك لكِ و همسه في أذنيك بكلمات الهيام يشعرك بأنك أروع امرأة في الكون , بل يشعرك بأنك طفلة تتمنين أن تركضى وسط الحقول و كأنك ابنة العاشرة , إن حبك

لرجل يبادلك هذا الحب يجعلك زهرة فواحة لا ينتهي عبيرها أبدا .
ضحكت رقية ساخرة و أزاحت شعرها للوراء و عادت تدهن قدمها و هي تقول : نعم نعم , لقد ركضت أمى كثيرا وراء أبى حتى أصابتها جميع الأمراض , و كذلك عمتى التي خانها زوجها حتى مع الخادمة , و لم يع خطأه الفادح إلا و هو على فراش الموت فكتب لها المصنع , و أنتِ ألم تتذوقى مرارة الرجال و قسوتهم ؟! ألا تذكرين ما فعله بك أشرف و بأختى فدوى ؟ هل نسيتى قسوته معكما ؟ , أنا حقا لا أفهمك .
صمتت مادلين لبرهة تتأمل رقية ثم قالت هامسة : لديك حق ، فربما لا نصادف أبدا ذلك الرجل الذى أحكى عنه .

*****

تحت السرير مكان سرى للغاية و متميز لحوار شيق . . . معكم من تحت السرير مراسلكم كو. . . أسف كريم .

اليوم سأحدثكم أيها الرجال عن بعض أسرار النساء , أسرار يمكنكم الإستفادة منها في حربكم ضدهن . . . و السؤال هنا : كيف تدمر المرأة ؟ . . . . لا لا , سأقص عليكم في البداية أمرا حدث لى ظهر اليوم و ضايقنى بشدة , كنت مع خالتى رقية بالمتجر الرئيسى و كانت كعادتها بتنورتها القصيرة مرتدية قميصا بدون أكمام , و كنت كلما مشيت بجوارها أسمع عبارات الغزل تنهال عليها , أما هي فكان يبدو عليها أنها لا تنتبه لشىء أبدا , فما من مرة استرعى انتباهها أي كلمة مما تقال , الأمر الذى أكد لى أن خالتى بالفعل معقدة و تكره الرجال , المهم أننا أثناء الشراء وجدت فتاة معى بالمدرسة تتسوق مع والدتها , كانت الفتاة تنظر لى من طرف عينها , لقد لمحتها أكثر من مرة , و أخيرا حاولت أن أكون أكثر جرأة فاقتربت منها و كأننى أختار شيئا لشراءه ثم نظرت لها و لاعبت حاجبى كمهرج بالسيرك , لكن لسوء حظى لمحتنى أمها و هتفت : كوكة حبيبى , كيف حالك ؟

شعرت بالغضب الشديد و الارتباك لمعرفتها باسم كوكة , و قبل أن أنطق قالت لها ابنتها : إنه صبى يا أمى , إنه كريم زميلى

بالمدرسة .
ابتسمت أمها ابتسامة سخيفة مثلها و قالت و هي تمسح على شعرى : أعرف يا حبيبتى , إنه ابن فدوى صديقتى , و دلعه كوكة.
نظرت لها بقرف و لابنتها و لحظى الأسود و تركتهما و مشيت دون كلمة و عدت أقف بجوار خالتى التي همست لى : أين كنت يا كوكة ؟
فأجبتها ساخرا : كنت في قسم المكياج .
ابتسمت و وضعت يدها على شعرى و فركته لى قائلة : أعشق خفة ظلك .
ستسألوني الآن عن الأسرار النسائية التي كنت سأبوح بها , لكن لم يعد لدي وقت الآن , و لكن كل ما سأخبركم به أن مجرد فكرة الحياة مع النساء بمنزل واحد هذا هو الجحيم بعينه .
في المساء كانت الجدة تمسك بكرة الصوف وتغزل بعض الخيوط بينما جلست رقية على الكرسى و رفعت قدميها أمامها على الكرسى المجاور و أخذت تقلم أظافرها , عندما أعلنت الساعة الثامنة مساء دق جرس الباب , فرفعت الجدة عينيها تنظر لساعة الحائط ثم قالت لرقية : هل عمتك بالخارج ؟
هزت رقية رأسها نافية و لم تنطق , فأمسكت الجدة بالجرس الحديدى و حركته لتنادى الخادمة لتفتح الباب , جاءت الخادمة

بعدما دق الجرس مرة أخرى فرمقتها الجدة بنظرة حادة . . . . عندما فتحت الخادمة الباب مالت رقية لترى من هناك , فرأت رجلا طويل القامة يتحدث إلى الخادمة وقبل أن تبدى دهشتها جاءت الخادمة و أخبرت الجدة أن أحدهم يدعى (المهندس ماجد) يريد مقابلة السيدة ماجدة , فأمرتها الجدة أن تدخله الصالون و تخبر السيدة ماجدة .

أنزلت رقية قدميها و اعتدلت في جلستها و وضعت الجدة الخيوط جانبا عندما دخل الضيف و أحنى رأسه مرحبا و هو يقول : مساء الخير , أعتذر عن حضورى دون موعد .

أومأت الجدة برأسها للرجل الخمسينى و قالت : لا بأس , مرحبا بك .

ثم نظرت للخادمة فصحبته لغرفة الصالون ثم صعدت لتخبر ماجدة بالأمر .

بعد دقائق قليلة هبطت ماجدة و توجهت لغرفة الصالون و بمجرد رؤيتها الضيف بدا الضيق على وجهها و قالت : ألم نرسل إليكم اليوم كآفة الطلبات المفروضة ؟

ابتسم و هو يمد يده لها و يقول : أهكذا تستقبلين ضيوفك ؟

زفرت بضيق و قالت : لا نستقبل الرجال ببيتنا .

نظر حوله للحجرة المنسقة ذات الأثاث الفخم و الفرش الوثير و قال متجاهلا كلامها : ذوقك رائع .

فقالت باقتضاب : ليس بيتى وحدى .
سألها محاولا حثها على الكلام : والدتك السيدة التي بالخارج أليس كذلك .
رفعت حاجبها و حكت ذقنها و هي تنظر له و قالت : لا , زوجة أخى .
عاد يسألها : و الشابة الصغيرة ؟
فعادت تقول : ابنة أخى .
جلس على الكرسى و وضع ساقا فوق ساق و قال : قهوتى بدون سكر .
نظرت له بضيق و رفعت صوتها قليلا و قالت : لا نقدم القهوة في مثل هذا الوقت .
فقام و تحرك ناحيتها و نظر إليها بشوق و سألها : لماذا لم تحضرى اليوم ؟
ابتعدت عنه خطوتين و قالت : لقد انتهى عملنا مع شركتك و لقد أرسلت إليك الطلب كاملا , فلا داعى إذاً لحضوري .
عاد يقترب منها و يقول : لكنى كنت أتمنى أن أراكِ .
سألتها و هي تنظر بعيدا : لماذا ؟
أجابها : هذا ما أشعر به .
عادت تبتعد عنه و قالت : لا أبادلك هذا الشعور , و لا أهتم لما تشعر به .

صمت قليلا و نقث بنفاذ صبر و قال : حسنا , هاتفى لديك إن شعرت بأمر مختلف و أردت التحدث إلي .
اقتربت ناحية الباب و فتحته و هي تقول : لقد مزقت البطاقة الخاصة بك بمجرد انتهائنا من العمل سويا .
خفض رأسه و لم ينطق لكنه مر بجوارها خارجا من الباب و ألقى التحية مرة أخرى على الجدة و رقية .
بعدما خرج من البيت جلست ماجدة بجوارهم صامتة , فسألتها رقية : من كان هذا ؟
كانت ماجدة شاردة و لم ترد إلا بعدما أعادت رقية السؤال فتنبهت و قالت : المهندس ماجد صاحب شركة الكنانة .
حركت رقية رأسها متفهمة و قالت و على شفتيها ابتسامة خبيثة: ملعونة وسامة الرجال , تشعرين أنهم ملائكة تسير على الأرض .
نظرت لها عمتها و قالت بدهشة : هل هو حقا وسيم ؟
فأطلقت رقية صفيرا طويلا من فمها و قالت : ألم تلاحظى يا عمتى ؟!
نظرت لها ماجدة و أطالت النظر لكنها لم ترد . . . .
على العشاء قالت فدوى للجميع : متى ستكونون جاهزين غدا ؟
ردت رقية : أعتقد في تمام السابعة .
قالت مادلين : لا تعودى بالسيارة من أجلى سيمر بى سائق إلهام الخاص .

عاتبتها فدوى و قالت : لم يا مادلين ؟ لم أشتك لك و البيت بآخر الشارع فالأمر ليس به أي مجهود .
ردت مادلين مبتسمة : لا بأس يا حبيبتى لقد أصرت إلهام على اصطحابي و سآخذ كوكة معى .
تدخلت الجدة قائلة : أرجو يا فدوى أن تتركى كوكة براحته , فهو لا يريد الذهاب .
قالت فدوى : لماذا ؟ إنها حفلة بها رجال و نساء , و لن أتركه كما يحلو له .
لم تزد الجدة و عادت تنظر للطعام و على وجهها علامات الاستياء, بينما قالت رقية و هي تتغنج : مامو حبيبتى لقد نفذ ما معى من مال , و أريد نقودا .
هزت أمها رأسها موافقة فقامت رقية و طبعت قبلة على خدها, ثم تركت المائدة و صعدت لغرفتها , و في طريقها مرت بغرفة كريم ففتحت الباب بحذر لتداعبه فوجدته نائما على بطنه موليها ظهره و يتصفح شيئا ما , فاقتربت بهدوء و نظرت على ما بيده , لكنها عادت بسرعة خطوة للوراء عندما وقعت عيناها على الصور الفاضحة التي يشاهدها بالمجلة , وقفت خلفه تنظر إليه و هو يتأمل تلك الصور لدرجة أنه وضع يده على الصفحة و كأنه يتحسس المرأة الموجودة بالمجلة . . . لم تعرف رقية ما الذى يجب عليها أن تفعله , لذا فقد عادت خطوات للوراء

بحرص شديد و أغلقت الباب ثم طرقته فسمعت صوت كريم من الداخل يقول : تفضل .

و عندما دخلت كان كريم يجلس على السرير و لم يكن هناك أثرا للمجلة , جلست بجواره صامتة لا تعرف ما يجب عليها قوله , هي لا تعرف شيئا عن عالم الرجال و لا طبائعهم , كل ما تعرفه هو حديث أمها و أختها عن والدها البخيل عديم الرحمة الذى فعلت أمها معه المستحيل و لم يتغير حتى قابل الموت فعاشوا في رغد من العيش , و كذلك زوج أختها مهووس النساء , و أخيرا زوج عمتها الخائن , لكن الوضع مختلف مع كريم فهى تشعر أنه ابنها و ليس فقط ابن أختها . . . . . طال صمتها فسألها كريم: خالتى ما الأمر ؟

انتبهت على صوته فنظرت له محدقة ثم قال بتلعثم : لا شيء يا حبيبى , فقط كنت أسأل نفسى هل أنت سعيد في العيش ببيت كله نساء ؟

فكر كريم قبل أن يجيب ثم قال في تؤدة : يُهيأ لى أن العيش معكم هو الجحيم بعينه , ذلك لأنكم تعاملونى كفتاة و هذا أمر يجرح رجولتى , لكن الحقيقة أن لى أصدقاء يحسدوننى على تلك الحياة و يقولون لى أن الحياة مع النساء كلها دلال و نعيم , فلى صديق يحكى لى عن أبيه الذى لا يكف عن الصراخ و إلقاء الأوامر في حين أن أمه تدللـــه لذا هو يعشق الوقت الذى يختفى فيه

أبوه .
عادت رقية تفكر في سؤال آخر ثم قالت و هي تحملق في سقف الغرفة : ما رأيك عامة بالنساء ؟ هل نحن جميلات ؟
هز رأسه بقوة إيجابا و قال بحماس : الحق أنتن جميلات خاصة أنتِ يا خالتى رقية , ألم تلاحظى كيف ينظر إليك الرجال عندما تمرين بجوارهم في الطرقات , أو كيف تنظر النساء لكِ بغيرة , أنتِ أجمل من حواء .
فتحت رقية فمها ببلاهة و سألته : حواء من ؟
فأجاب بنفس الحماسة : زوجة آدم , لقد سمعت أنها أجمل امرأة خلقت , لكنى أعتقد أن قائل تلك العبارة لم يقابلك من قبل .
و هنا رنت ضحكة رقية و ملأت أرجاء الغرفة حتى أن كريم أحس أن كل الحياة تضحك لضحكها , فنظر لها بنفس الأنبهار الذى لا يفارقه عندما يراها و تركها تضحك كما تشاء , و عندما توقفت سألها : ألم تحبى من قبل ؟
تأملته قليلا ثم قالت : أنا أحب ؟ أنا أجمل من أن أهب نفسى لرجل , أنت بنفسك رأيت كيف ينظر لى الجميع .
سألها بفضول : و ستحتفظين بجمالك هذا لكِ وحدك ؟
رن السؤال بعقلها فذكرها بما كان يفعله كريم منذ قليل فقررت فجأة أن تواجهه فقالت : لا , لن أحتفظ به وحدى , سأصور

نفسى عارية و أضع صورى في المجلات ليشاهدنى كل الرجال .
فتح كريم فمه و تغير وجهه و احتقن صوته و هو يقول : ماذا قلتى ؟
ردت ببساطة : كما سمعت .
صرخ كريم قائلا : و لكن هذا عيبا كبيرا .
سألته و هي تنظر له بقوة : عيب على من خلعت ملابسها أم عيب على ما يشاهدها ؟
تردد كريم قليلا ثم أردف : الأثنين , و لكن العيب عليها هي أكبر بكثير .
سألته : لماذا ؟
قال : لأن لولا صورها العارية لما شاهدها الرجال .
قالت : و لماذا لا تقول لولا وجود رجال تغلب عليهم شهوتهم و يتمتعون في السر بتلك الأشياء لما وجدت لها سوقا و لم تكن لتفعل هذا .
هز كريم كتفه و قال : ربما , لكن أبى يقول أن الغواية تبدأ من المرأة .
نظرت له بدهشة و سألته بفضول : أبوك ؟ أين رأيته ؟
مط شفته غير مبال و قال : يمر على مدرستى كل فترة و يجلس معى .
ضحكت ساخرة بغيظ شديد و قالت : و هل يعطيك نقودا ؟

حرك رأسه نافيا و هو يقول : لا .
فقامت من جانبه و هي تشير بيدها مُحذرة : كعادته أناني , و لكني أحذرك إن علمت فدوى إنك ترى أباك ستقتلكما معا .

*****

و مرة أخرى مع مراسلكم كريم من بيت النساء , هذه المرة أتحدث إليكم من غرفة خالتي رقية , حيث ذهب الجميع لحفل عيد الربيع و تركوني أخيرا لذا قررت أن أرتع في كل الحجرات لكن الحقيقة أهم غرفة بالنسبة لى هي غرفة خالتى الجميلة, من المؤكد أنى سأجد بها كآفة أنواع العطور و جميع أدوات التبرج , هيا معى ننظر هنا عند المرآة حيث وضعت نوعين من العطور الفرنسية التي تحبها و تفوح منها عندما تخرج , ثم أن لديها خمس أمشاط مختلفة الأحجام لا أدرى فيما تستخدمهم , و تحت المرآة نجد صندلا أحمرا و آخر أسودا و ثالث أزرقا طول كعب الواحد منهم أكثر من عشرة سنتيمترات . . . و إذا فتحنا الخزانة الكبيرة سنشهق . . . . . يا الله إن لديها أكثر من مائة فستان و بلوزات لا حصر لها و تنورات بجميع الألوان , و في الأدراج نجد ملابسها الداخلية منسقة بعناية و كأنها ستخرج بها, دعونا نلمس واحدة . . . . إن ملابسها الداخلية من الحرير , كل هذا النعيم من خير أبيها الذى لا يذكروا سوى مساوءه .

في الحفل كان بيت السيدة كاميليا مكتظا بالمدعوين و قد دخلت فدوى بصحبة أمها أولا فرحبت بهما كاميليا ترحبيا حارا ثم دخلت ماجدة و رقية فدوى صفير طويل من أحد الأركان

فابتسمت كاميليا و هي ترحب برقية و قالت : هذا الصفير لا نسمعه إلا عندما تدخلين أي مكان .
دارت رقية بعينيها في خجل و لم تعرف بما ترد , لكنها تحركت بسرعة لتقف بجانب أختها , و بعدما انتهت كاميليا من الترحيب بماجدة طلبت من ابنتها اصطحابهم إلى الركن المخصص لهم , و من سوء حظ رقية أن الركن المخصص به زوجة الوزير المتعجرفة التي تمقتها بشدة , كان الجميع متكلفين للغاية مما أثار حنق رقية , و بعد وقت أعلنت كاميليا أن الرقص سيبدأ , فتقدم نحو رقية الكثيرون يطلبونها للرقص لكنها رفضت بإصرار , ثم قررت أن تقوم من مكانها و تجلس في ركن آخر بعيدا عن الأنظار. . . .
لفت انتباهها سيدة تضع حجابا على رأسها , تعجبت كثيرا لهيئتها لكنها قررت أن تقعد بجوارها. . و قبل أن تجلس ابتسمت و قالت : مساء الخير هل يمكننى الجلوس ؟
ابتسمت السيدة الوقورة في ود و قالت : بالطبع يا ابنتى تفضلى.
جلست رقية و وضعت ساقا فوق ساق ثم تنبهت أن جلستها لا تليق بجوار تلك المرأة فأنزلت قدمها و اعتذرت بهمهمة , فحركت المرأة رأسها يمينا و يسارا لتطمئنها و هي تقول : لا بأس يا ابنتى اجلسى كما تشائين .
ثم أتت العديد من النساء يسلمون على تلك المرأة الوقور و يدعون لها بالصحة و العافية , و مالت أحدهن تسألها سؤالا

سريا فأجبتها المرأة بصوت خفيض , ثم اقتربت فتاة ترتدى فستانا طويلا دون أكمام و قالت لها : لقد صليت في اليوم الثالث من الحيض بعدما استحممت كما أخبرتنى .
سألتها السيدة : هل توقف الحيض ؟
فكرت الفتاة لثانية و قالت : أظن لا .
فابتسمت السيدة و قالت : انتظرى حتى يتوقف تماما , لا داعى للعجلة تلك رخصة الله .
لوقت أخذت رقية تستمع لأسئلة النساء و ردود المرأة عليهن , حتى أنها قررت أن تسألها هي الأخرى فانتهزت الفرصة بمجرد أن مشت آخر سيدة و مالت قليلا نحو المرأة و قالت : أنا رقية عبد القادر . . . .
حركت المرأة رأسها بود و قالت : أعرفك يا حبيبتى .
رفعت رقية حاجبها في عجب و سألتها : حقا؟
فأومأت المرأة برأسها و قالت : نعم , لقد رأيتك في حفل العام الماضى و أعتقد أنك تزدادين جمالا كل عام .
لا تطرب رقية كثيرا للمديح حيث اعتادته , لكنها تلك المرة شعرت بانتشاء من أثر تلك الكلمات , نظرت للمرأة و همست شاكرة ثم سألتها : ترتفع حرارتى كلما حِضت , هل أحتاج للفحص ؟
قالت المرأة : أنا لست طبيبة يا ابنتى .
قالت رقية : معذرة اعتقدت أنك طبيبة بسبب بعض الأسئلة

التي وجهتها الفتيات و النساء .
قالت المرأة : هن يسألن بأمور دينية كالطهارة و الصلاة .
مطت رقية شفتيها و حركت رأسها متفهمة و صمتت , هي بالأصل لا تعرف حتى متى تصلى , لذا قررت التزام الصمت . . .
أما المرأة عندما رأت الارتباك من رقية اعتدلت و تابعت الحفل .
بعد وقت عادت العديد من النساء يسلمن على المرأة و ينهالون عليها بالأسئلة , لكنها بعد أن أجابت على سؤالين بدأت تشعر بالدوار و مالت حتى وقعت رأسها على كتف رقية , ارتعدت رقية و خافت أن يكون حدث أمر سيء للمراة , و تجمع العديد حولها , و توقفت الموسيقى , ثم نادت السيدة كاميليا على أحد الأطباء و طلبت منه فحص السيدة التي علمت رقية أن اسمها (زينب هانم) , أخبرهم الطبيب أنها غيبوبة سكر و بدأ يتعامل مع الأمر , و عندما أفاقت أصرت على أن تغادر الحفل معتذرة لما سببته من قلق للجميع , لكن السيدة كاميليا لم توافق أبدا و طلبت منها الأنتظار حتى يوصلها زوجها للمنزل , بينما أبت السيدة زينب أن يترك زوج السيدة كاميليا الحفل , وجدت رقية نفسها فجأة تقول للسيدة كاميليا : أنا معى سيارة و سأصحبها لبيتها .
نظرت زينب لرقية بامتنان و قالت : أنا معى سيارة يا حبيبتى و سأقودها .
قبل أن تتكلم رقية مرة أخرى هتفت السيدة كاميليا في ارتياح

و قالت : سأكون مطمئنة عليك مع رقية دعيها تقود سيارتك .
استسلمت زينب للأمر و شكرت الجميع , فاستأذنتها رقية لتخبر أمها بالأمر , و تترك مفاتيح سيارتها لفدوى لتعود بها للمنزل . .,
و في الطريق سألت رقية زينب هانم : هل من أحد في انتظارك بالبيت ؟
قالت زينب : لا .
رقية : كيف سأتركك إذاً ؟
زينب : لا بأس يا حبيبتى بعد ساعتين سيكون ابنى قد عاد .
حركت رقية رأسها متفهمة و عادت تقود في صمت حتى دخلت حي هادئ للغاية على يسار طريقها غابة كثيفة الأشجار و على اليمين المنازل تقبع في صمت . . . . سألت رقية نفسها كيف ستعود وحدها من هذا الطريق الموحش و ظل السؤال يلح عليها حتى أشارت لها زينب بالتوقف أمام بوابة البيت التي كان معلق عليها مصباح كبير يشبه مصابيح العصور الوسطى , طلبت منها زينب أن تُبوق بوق السيارة , و بعد ثوان كان البواب يفتح ليدخلوا بالسيارة , أوقفت رقية السيارة و هبطت منها و أمسك البواب بيد سيدته و أخرجها .
في الداخل كان السكون يسيطر على البيت و لمحت رقية و هي تجلس مصحفا كبيرا على المنضدة التي أمامها , جلست السيدة زينب و ربتت على كف رقية بحنان و سألتها : هل تحبين عصيرا

أم مشروبا ساخنا ؟
ردت رقية بسرعة : لا هذا و لا ذاك , اسمحى لى أن أنصرف قبل أن يتأخر الوقت أكثر من هذا .
نظرت زينب لها بدهشة و قالت : كيف تنصرفين وحدك في هذا الوقت , زياد سيأتى بعد قليل و يوصلك .
لم تسألها رقية من هو زياد و لكنها قامت و قالت بقلق : أرجوك زينب هانم لا أستطيع الجلوس أكثر من هذا فدعينى أوصلك لغرفتك كى أطمئن عليك و أمضى .
قبل أن ترد السيدة زينب كان جرس الباب يدق ثم يفتح أحدهم و يدخل , نظرت رقية للرجل الملتحى الذى يتجاوز الثلاثين من العمر الواقف أمامهما حيث بادرهم قائلا : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .
ردت السيدة زينب السلام بينما تمتمت رقية بمساء الخير , أشارت السيدة زينب نحو رقية و قالت : الأنسة رقية أصرت على توصيلى عندما تعبت بالحفل .
ظهر القلق على وجه الرجل و استند على ركبتيه أمام زينب و أمسك بيدها و قال : ما الأمر ؟
ربتت على كتفه تطمئنه و قالت : نوبة سكر لا أكثر .
نظر لها طويلا و هو يضع يده على فمه ثم قال : ألم أطلب منك عدم الخروج و أخبرتك أنك بحاجة للراحة .

عادت زينب تقول في حنان : لا بأس يا حبيبى لقد صرت بخير .
ثم نظرت لرقية و قالت : هذا ابنى زياد يا رقية سيوصلك حتى بيتك يا حبيبتى .
شكرتهم رقية و حاولت أن ترفض لكن زياد قال لها : لا يصح أن تذهبى وحدك , هذا أقل ما يجب فعله معك .
ثم تقدم نحو الباب و قال : سأنتظرك بالسيارة .
سلمت رقية على زينب و طلبت منها الأخيرة أن تعود لزيارتها بأى وقت , وعدتها رقية بالزيارة ثم خرجت لتركب السيارة بجوار زياد . . . . كانا صامتين حتى سألها زياد : ماذا تعملين ؟
قالت : لا شيء .
سألها : لماذا ؟
قالت : لا أعرف ما يجب علي عمله , تخرجت منذ ثلاث سنوات من كلية التجارة و رفضت خطاب القوى العاملة .
كان زياد ينظر للطريق و هو يتحدث إليها , فعادت تسأله هي: و أنت ماذا تعمل ؟
قال : تخرجت في كلية الطب , لدى عيادة بالحى , لكنى أذهب باستمرار إلى الميدان لتضميد الجرحى .
قالت : جيد أنك تعرف كيف تضيع وقتك .
ابتسم و هو ينظر للطريق و سألها بهدوء : و هل هكذا يضيع الوقت ؟

خجلت من جملتها فعادت تقول : أقصد تقضى وقتك .
قال : لا أضيع و لا أقضى , على المرء أن يعمل لأن عمله جزء من عبادته لله , فكما تصلين و تصومين يجب أن تعملى .
لم ترد رقية على كلامه , اكتفت فقط بإيماءة برأسها , و بعد دقائق اختلست النظر لوجهه فوجدته شديد الوسامة و حدثت نفسها أن اللحية هي التي جعلته يبدو هكذا , فربما لم تكن لتراه وسيما لولاها , فسألته : لماذا تترك لحيتك هكذا ؟
وضع يده على لحيته يتحسسها والابتسامة لا تفارقه و قال: الطبيعى أن أترك لحيتى و ليس العكس.
عادت تتأمل اللحية و تقول : هذا ليس طبيعى , إن الرجال جميعا يحلقون .
هز رأسه و قال بمرح : لدى الكثير من الأصدقاء يتركون لحاهم .
جادلته قائلة : لكنه أمر غير مألوف في مجتمعنا .
أجاب : ليس كل مألوف صحيح .
عادت تسأله : هل والدتك هي من ربتك على هذا , فأنا أراها تضع حجابا فوق رأسها .
نظر إليها بسرعة ثم عاد ينظر للطريق و قال : هي بالفعل من ربتنى على ذلك , و لكن السؤال هل ترين أمى أيضا بحجابها شيئا غير مألوف ؟
حركت رأسها بالإيجاب , فرمقها بنظرة خاطفة و صدرت منه

قهقهة طالت قليلا , و بعدما توقف سألها : و هل المألوف أن تخرج النساء بملابس كاشفة ؟

قالت : نعم , هذه ملابس كل من حولنا .

قال مبتسما : و لكن التعري أمر غير مألوف في الدين , بل هو مسألة لا تجوز من الأصل , فأيهما أحق أن يُتبع المألوف في المجتمع أم المفروض في الدين ؟!

قبل أن تجيب أشارت لبيتها فأوقف السيارة و قال : حمدا لله على سلامتك .

قالت له مشيرة للبيت : يسعدنا أن تشرب معنا القهوة .

فضحك و قال : الساعة الثانية صباحا هذا وقت الخمر , فإن كان متوفرا سأدخل .

فاتسعت ابتسامتها و قالت : سنوفرها قريبا كي تدخل .

فرمقها بنظرة خاطفة و قال : عفاكم الله .

قبل أن تخرج من السيارة وجدت مادلين أمام البوابة , ففتحت الباب و خرجت , ثم خرج هو الآخر ليلقى التحية على مادلين , عرفتهما ببعضهما , و شكرته مادلين على توصيله لرقية , فأجابها أن رقية هي من تستحق الشكر , ثم أشار لهما و انصرف .

مضت السيارة حتى اختفت بسرعة و عندما همت رقية بالدخول سمعت مادلين تقول :

ألم أقل لك أن اللعنة على كل رجل وسيم .

فابتسمت رقية و تأملت مادلين و قالت : صدقت , عليهم اللعنة أجمعين .

*****

و من جديد عدنا مع مراسلكم من بيت النساء كريم , و هذا الصباح مختلف عن باقى الصباحات , فهناك حديث جديد يشغلهم , أنا لا أعلم حتى الآن ما الأمر لكن خالتى بالأمس تحدثت عن زينب هانم التي تضع غطاء الرأس و ابنها الذى أطلق لحيته , و لكن نظرا لأن الوقت كان متأخرا فقرروا تأجيل الحديث حتى الصباح , و ها نحن قد تناولنا طعام الإفطار و لأن اليوم عطلة رسمية فسننزل الآن إلى الحديقة لنجلس معا و نتناول الشاي و الكعك و نثرثر, لذا سأترككم لألحق بثرثرة النساء اللاتى يشعرننى و كأننى واحدة منهن و لم يبق لى سوى أن أحيض.

آخر من وصل إلى الحديقة كانت كعادتها رقية , وضعت قبلة على خد أمها و جلست بجوارها و قالت و كأنما تكمل حديث بدأته من قبل : و سألنى الشيخ زياد إن كنت أعمل , و تعجب لكونى لا أعمل .

سألتها عمتها : شيخ ؟ ألم تخبرينا أنه طبيب ؟

أجابت رقية ببساطة : نعم طبيب و له هيئة حسنة و لكنها يتكلم كالشيوخ .

قالت فدوى : من المؤكد أنه نصحك بالأحتشام و تغطية رأسك .

هزت رقية رأسها و قالت : لم يفعل , و لم يُعلق , و لم ينظر لى بصورة جيدة , أعتقد أنه حتى لن يعرفنى إن رآنى مرة أخرى .
قالت فدوى : إنه مكر الرجال , ينظر إليك عندما تستديرى , من المؤكد أنه تفحصك من رأسك حتى أخمصك .
أزاحت رقية شعرها إلى الوراء في خيلاء و سألت و هي تنظر لمادلين : هل تعتقدين أنه فعل هذا يا مادلين ؟
نظرت مادلين بخبث لها و قالت : أنتِ وحدك التي تستطيعين الجزم بهذا , أنت تعرفين جيدا كيف ينظر الرجال إليك , و لا أعتقد أنه يختلف عنهم .
دلكت رقية قدميها العاريتين بيديها و قالت و هي تنظر للسماء: للأسف لم أشعر بانبهاره , و هذا الأمر ربما ضايقنى .
و هنا تدخل كريم و قال : اسمحى لى يا خالتى أن أبدى رأيى كرجل .
دخل الجميع في نوبة ضحك لدى سماعهم جملة كريم , فاغتاظ بشدة لتصرفهم و عاد يصيح بصوت عال : معذرة لم أقصد كرجل, بل كواحدة منكن .
فعادوا يضحكون مرة أخرى حتى أن رقية وقعت على الأرض من شدة الضحك , غضب كريم و قام من مكانه تاركا الحديقة, فلحقت به خالته و أمسكت ذراعه و هي تحاول أن تتمالك نفسها وتوقف الضحك و قالت : لا بأس يا كوكة أعتذر , سأستمع

لكلامك و آخذه على محمل الجد .
عاد كريم إلى كرسيه و نظر لهم جميعا ليتأكد من إنصاتهم ثم قال : أعتقد أنه انبهر بخالتى كل الانبهار , فكما نعلم جميعا أن كل الرجال يتوددون إليها , لكن يبدو أنه ذكى و يتبع طريقة أخرى حتى لا تتضايق منه .
استحسنت أمه الكلام و قالت : أحسنت يا كوكة , من أين لك بتلك الأفكار ؟
وضع ساقا فوق ساق و انجعص في مكانه و رد : من اطلاعاتى المختلفة .
فعادوا يضحكون مرة أخرى , و مالت نحوه رقية هامسة في أذنه: أي اطلاعات , أنت آخر اطلاعاتك مجلات فاضحة .
بحلق بها و هو فاتح فمه و لم يتحرك من مكانه كمن بال على نفسه .

*****

كانت مادلين تعمل لوقت متأخر في حجرتها عندما سمعت طرقا على الباب , فطلبت من الواقف بالخارج الدخول , فدخلت رقية و ألقت بنفسها فوق السرير و ظلت صامتة , فتركت مادلين القلم على المنضدة و وضعت يدها تحت ذقنها و قالت : و ماذا ستفعلين ؟

اعتدلت رقية في جلستها و سألت : عن أي شيء تتحدثين ؟

أجابتها مادلين : عن زياد بالطبع , عامة التجربة الأولى دائما تبوء بالفشل , لكن يجب خوضها لننتقل إلى المرحلة الثانية و ندخل في علاقة ناجحة .

أشاحت رقية بيدها ساخرة و قالت : ما هذا الهراء , علاقة أولى و علاقة ثانية , ثم إن كل علاقاتكم فاشلة أولى و ثانية و عاشرة , لا شيء ينجح على الإطلاق , ثم أنه لا يشغل بالى نهائيا .

و قامت من فوق السرير و توجهت نحو الباب و هي ترفع أصبعها محذرة مادلين : لا تتنبأى مرة أخرى بأوهام ليس لها أي أساس .

عوجت مادلين فمها و قالت : كفاك سذاجة و عودى لنتحدث .

نظرت لها رقية ما يقرب من نصف دقيقة و هي ممسكة بمقبض

الباب تفكر , ثم تركته أخيرا و عادت تجلس على السرير و تقول: لم يخبرني عن تخصصه أو مكان عيادته .
ردت مادلين : الأمر بسيط , سنتصل بالدليل و يخبرنا .
عادت رقية تقول : لا أعرف اسمه بالكامل .
فكرت مادلين قليلا , ثم أمسكت بالهاتف و سألت رقية : أين يسكنون بالضبط ؟
عندما أجابتها رقية عن العنوان بالتقريب اتصلت مادلين بالدليل و بعد أقل من خمس دقائق كان معها الاسم بالكامل و عنوان و هاتف العيادة .
سألتها رقية : ماذا سنفعل بهم ؟ , لا يليق أن أذهب إليه بنفسى .
ضحكت مادلين و قالت : بل سنجعله يأت إلينا .
سألتها رقية : ماذا نفعل به إنه طبيب عظام ؟
أجابتها مادلين : فقط انتظريه غدا .
عندما وضعت رقية رأسها فوق وسادتها حاولت أن تتذكر ملامح وجهه , لكن قبل أن تستحضره كان النوم قد غلبها , هكذا نحن النساء يغلبنا النوم في بداية العلاقات ثم يهجرنا هجرا غير جميل إذا ما وقعنا في فخ الحب .
فتحت رقية عينيها عندما أحست بيد تهزها و كانت أمامها مادلين, فتمطعت و سألت مادلين بتكاسل : كم الساعة ؟ و ما الأمر؟

جلست مادلين بجوارها و قالت بصوت خفيض : صه , أنا ليس لدى الكثير من الوقت , فأمامى ساعة واحدة لكى أذهب للعمل, و لقد أخبرت الجميع منذ الأمس أن قدمك تؤلمك .
اعتدلت رقية في جلستها و سألت بدهشة : قدم من ؟
زفرت مادلين و قالت : القليل من التركيز أرجوك , قدمك أنت و هذه مقدمة لكى نستدعى الطبيب .
هزت رقية رأسها باستياء و قالت : حيلة قديمة يا مادلين و سيكشف أمرنا .
هتفت مادلين بها : حيلة قديمة ؟ و يا ترى ما الحيلة الجديدة ؟ , هل لديك غيرها ؟ , لا تضيعى وقتى .
حكت رقية رقبتها بأظافرها و هي تفكر ثم قالت : لا بأس من الهجوم على العدو , سأذهب بنفسى إليه كنوع من التغيير .
فتحت مادلين فمها ببلاهة ثم قالت : سيحتقرك و لن يتحدث إليك كسيدة محترمة , فالرجل لا يحب المرأة التي تلهث وراءه .
قالت رقية بغيظ :عليه اللعنة و على كل الرجال , لا أريد رؤيته مرة أخرى , و كأن لا شيء حدث.
ثم نهضت بسرعة من سريرها و توجهت لتأخذ حماما و هي تقول : اذهبى لعملك يا مادلين , فأمر ذلك الزياد لا يهمنى .
على مائدة الإفطار جلس الجميع يثرثرون في أمور مختلفة حتى قاطعهم كريم قائلا و هو يضع يده فوق رأسه : أشعر بدوار

شديد .
تركت فدوى الطعام و جرت بسرعة تحضر له ماء بسكر , في حين طلبت منه جدته أن يضع قطعة جبن كبيرة بفمه , أما هو فمالت رأسه على المائدة و فقد الوعى .
انقلب البيت كله و جرت رقية إلى البيت المجاور لتستنجد بالطبيب العجوز الذى أتى بسرعة و معه مقياس الضغط , و استطاع إفاقته بعد أقل من دقيقتين من وصوله , سألته الجدة بلهفة : هل هو بخير ؟
أجاب ببساطة : يحتاج إلى بعض التحاليل و سنرى ما الأمر , لكنى أعتقد أنه مجرد هبوط عارض , لكن التحاليل للإطمئنان .
عندما خرج الجميع من غرفة كريم ذهبت فدوى لتعد له مشروبا, بينما بقيت مادلين و رقية معه , كانت رقية صامتة تتأمله في الوقت الذى كانت فيه مادلين تثرثر معه لتتأكد من أنه أصبح بخير , أخيرا قالت رقية و هي تنظر بعيدا نحو النافذة : سأعرضك على طبيب ماهر .
سألها كريم : و هل هذا العجوز كان نجارا ؟
نظرت له بدهشة و قالت : نجارا ؟ ألا تتوقف عن سخافتك .
فرك شعره و قال : أقصد أنه طبيب و أخبركم أنى بخير فلا داعى للذهاب لآخر .
قالت رقية : استمع لى أنا خالتك و الأدرى بمصلحتك , سنذهب

للدكتور زياد .
صدرت ضحكة من مادلين عاتبتها عليها رقية بنظرة منها , في حين نظر لهما كريم ليستوعب الأمر و أخيرا تذكر من هو زياد و صاح: لا , لا , لا , لست لعبة في يدكم , لن أذهب إليه .
مالت عليه رقية و وضعت قبلة فوق خده و قالت : أريد أن أطمئن عليك يا حبيبى بعدما وقعت في الشارع بجوار العيادة .
سأل كريم بدهشة : عيادة من؟ أنا لم أقع بالشارع .
تدخلت مادلين قائلة : هل جننت زياد طبيب عظام , ما دخله بكريم ؟
ردت رقية بخبث : لم أركز في التخصص عندما فقد كريم وعيه بالشارع , لم ألمح سوى كلمة طبيب ,هذه هي الحجة التي سأقولها .
نظر كريم لخالته و قال باستسلام : و الله لن ننجو من مكر النساء .
في موعد العيادة كانت رقية قد شرحت لكريم ما يجب أن يقوله, و دخلت إلى العيادة و كريم مستندا إلى ذراعها و قالت للمرضة: أريد مقابلة الطبيب بسرعة , فالصبى كان فاقدا للوعى منذ دقائق .
قالت لها الممرضة : تفضلا بالجلوس , سأستأذن الطبيب في الذهاب لأرى عيادة الطبيب المجاور إن كانت مفتوحة لأنه متخصص في

المخ و الأعصاب .
شعرت رقية أن الأمر سيفلت من يدها فعادت تقول : دعى فقط الطبيب يراه ليطمئنى ثم نذهب إلى الآخر بعدها .
هزت الممرضة رأسها باستسلام و قالت : سأفعل بعد خروج الكشف .
و بعد دقائق دعتهم للدخول إلى غرفة الكشف و كانت صدمة رقية عندما وجدته طبيبا آخر فاضطرت لشرح الأمر و الصبر على كلام الطبيب حتى انتهى من نصائحة بالفحص و الكشف لدى متخصص فشكرته و انصرفا بسرعة .
خرجت من العيادة تملؤها الحيرة و كانت تكلم نفسها بصوت عال : حمقاء مادلين أتت ببيانات خاطئة , و الله لن أهتم لهذا الأمر مرة أخرى .
فقال لها كريم بسعادة : الحمد لله و أرتاح أنا من تسولكم بى .
ضربته في كتفه بغضب و قالت : ما هذه الألفاظ ؟ هل أتسول بك يا كوكة ؟!
ضحك كريم و وضع قبلة على خدها ثم توجها للسيارة و قبل أن تدخل سمعت صوتا يأتي من خلفها يقول : صدفة جميلة .
نظرت وراءها فكان زياد , ابتسمت ابتسامة خفيفة و لم تبد لهفتها و ظلت بمكانها حتى أتى إليها و قال : مرحبا رقية .
فقالت بصوت هادئ : مرحبا دكتور زياد .

نظر كريم لهما و قال منبها لهما : أنا كريم ابن أختها .
مد زياد يده مصافحا كريم و قال : مرحبا يا رجل , كيف حالك ؟
رقص قلب كريم لدى سماعه جملة زياد و رد قائلا : أنا بخير .
ثم قال لهما زياد : العيادة على بعد خطوات , يسعدنى أن تتناولا الشاي معى .
سألته رقية بدهشة : هنا ؟
فأشار لليافطة و قال : هناك , دكتور زياد زيدان , ماجستير مخ و أعصاب .
أدركت رقية الخلط الذى حدث و امتنت للقدر , ثم قالت لزياد: لا نحب تعطيلك , فمن المؤكد أن لديك مرضى .
هز رأسه قائلا : أنا آتى قبل الموعد بنصف ساعة لتناول الشاي .
هزت رقية كتفيها باستسلام و دخلا معه العيادة , و أثناء تناول الشاي أخبرته بحالة كريم , فطلب منها أن تأتى له بتحاليل سيكتبها , و بمجرد كتابته للتحاليل اطمئن قلبها لوجود لقاء ثانى, فاستأذنت وهمت بالإنصراف لكنه استوقفها قائلا : رقية أنا أعتذر لقد تذكرت أننى ذاهب إلى الميدان بعد غد .
نظرت له حائرة لا تعرف ماذا تقول , إذ أن مخططها أن توقعه في شباكها ثم تتركه و ترحل , و هو بسفره هذا يعرقل مخططها, لكنها عندما كانت تنظر إليه تفكر في كلمات تقولها , كان هو ينظر ناحية كريم مما أثار حنقها , فأجابته أخيرا : لا بأس يا

دكتور, يمكننا أن نعرض التحاليل على طبيب آخر لنطمئن .
فأجابها ببساطة : كنت أريد أن أساعد هذا الرجل , لكن لا بأس فمصلحته أهم .
شعرت بالحنق جراء ردة فعله الهادئة فرفعت رأسها لأعلى و دفعت شعرها إلى الخلف بنعومة و قالت له : استدارت لك الأرض .
فابتسم قائلا : استدارت لى و لكِ .

*استدارت لك الأرض : بمعنى عدت سالما كما ذهبت
* استدارت لى و لك : دعوة بأن يلتقيا مرة أخرى .

*****

من تحت سرير جدتى مراسلكم كريم ينقل لكم الأخبار مرة أخرى من بيت النساء , و الواقع أنى اضطررت لهذا الوضع الغريب حيث كنت أبحث عن بندقية جدى التي لا تريد النسوة أن يعطوها لى لأن الصيد كما يقولون رياضة تخص الرجال و هم لا يمكنهم رؤيتى سوى راقصة بالية , لذا قررت سرقة البندقية من الغرفة , لكن لسوء حظى سمعت خطوات جدتى تقترب فنزلت تحت السرير حتى لا تمسك بى متلبسا , لهذا سأضطر للبقاء حتى تغط جدتى في النوم .

بعد مرور أكثر من أسبوع على لقاء رقية و زياد و ذات نهار صيفى شديد الحرارة خرجت رقية بصحبة مادلين لزيارة السيدة كاميليا صاحبة الحفل حيث دعتهم لاحتساء القهوة معها صباحا, و في الطريق قالت مادلين : غريبة أنت جدا يا رقية , لم تعودى تذكرين زياد بعد آخر لقاء لكما .

تعجبت رقية من كلامها و سألتها : و هل كنتِ تظنين أنى أحبه ؟

أجابت مادلين : بالطبع لا , لكنى ظننتك مهتمة لأمره .

هزت رقية رأسها نفيا و قالت و هي تقود : نهائيا , في بعض الأحيان يتصرف المرء بحماقة , فقط كان يثيرنى أنه لم ينظر لى تلك

النظرات التي يطاردنى بها الجميع , لكن عندما رأيته مرة أخرى لم أشعر بشىء , لم أشعر بأى شيء نهائيا .
ثم ازدردت لعابها و قادت السيارة في صمت .
في منزل السيدة كاميليا عندما دخلن فوجئت رقية بوجود زينب هانم التي رحبت بها بشدة , و قدمت لهن كاميليا الشاي و الكعكة ثم أخذن يثرثرن في أمور مختلفة لأكثر من ساعتين و في النهاية سألت السيدة كاميليا زينب هانم : هل عاد دكتور زياد من الميدان ؟
أجابت زينب : ليس بعد .
تدخلت مادلين قائلة : أعاده الله سالما .
شكرتها زينب التي بدا القلق على وجهها , فنكست رأسها و صمتت , فجأة وجدت رقية نفسها تقول : أريد أن أصلى و لا أعرف كيف يكون الأمر .
رفعت زينب عينيها تنظر لرقية بابتسامة واسعة ثم أجابت بهدوء: يسرنى أن تأتى غدا لزيارتى و سأعلمك الصلاة .
سألتها رقية : لماذا فرض الله علينا الصلاة ؟ بمعنى ما حاجتنا إليها؟
قالت زينب : إننا نصلى لأننا بحاجة إلى الله ليدبر كآفة أمورنا .
هزت رقية كتفيها العاريتين و قالت بلا مبالاة : لكنى لدى كل شيء .

قالت زينب : صلى إذا لتشكريه .
حركت رقية رأسها وهي غير مقتنعة بالكلام , و هنا قالت لها زينب مرة أخرى : لا تصلى يا رقية , أدعوك فقط للمجىء و سنتحدث , و لا تصلى إلا و أنتِ مؤمنة بالصلاة , إذ لا معنى للصلاة دون إيمان .
أعجب رقية الكلام و اتفقت مع زينب هانم على المرور بها صباح غد .
في طريق العودة ضحكت مادلين و هي تنظر لرقية و تقول ساخرة : أريد أن أصلي , يا لك من امراة و تحتالين على العجوز حتى تدعوك لبيتها .
ضحكت رقية و هي تنظر للطريق و تقول باستهتار : لم أكذب و لم أتحايل , أنا حقا أريد أن أعرف ما هي الصلاة .
قالت مادلين : منذ أن دخلت بيتكم لم أر أحدا يصلى أو يصوم سوى أمك , و لم أسمعكم يوما تتحدثون في أمور الدين .
قالت رقية بخبث : و أنتِ يا مادلين طباعك موافقة لنا تماما فأنت منذ مجيئك من بيروت مرورا بزواجك حتى طلاقك و بقاءك معنا لم نرك يوما تصلين أمامنا أو تعظينا بالصوم في رمضان .
ضحكت مادلين : و لم أدع يوما اهتمامى بتلك الأمور , فكل أمورى تسير على مايرام و لا أؤمن بتلك النساء اللاتى يضعن غطاء للرأس أو أولئك الرجال الملتحين .

كانت رقية تركن سيارتها و هي ترد قائلة : و لا أنا , لكنى أريد أن أثبت لنفسى أن كلهم مدعون , نساؤهم و رجالهم .
و الواقع أن رقية لم تكن تريد إثبات أي شيء , هي تعلم أنها تكذب , لكنها لا تفهم لم أرادت أن تقترب أكثر من زينب هانم , فالدافع حتى هذه اللحظة كان مجهولا لها .
و في صباح اليوم التالى وقفت لوقت تطلق سارينة السيارة حتى يفتح لها حارس منزلهم , و بعدما فتح أدركت أنه كان نائما و تعجبت كيف ينام إلى هذا الوقت المتأخر و الساعة قاربت العاشرة , دقت جرس المنزل و انتظرت دقيقة حتى فتحت لها زينب هانم الباب , استقبلتها كعادتها بوجهها البشوش و لكن الإرهاق كان يبدو عليها , فسألتها رقية بعدما جلست : هل أنتِ بخير ؟
أومأت المرأة برأسها و قالت : الحمد لله يا حبيبتى .
ثم قامت زينب من مكانها و أمسكت بيد رقية و قالت : ما رأيك لو نصنع القهوة سويا ؟
استحسنت رقية الفكرة و قامت معها , غلت رقية اللبن في حين وقفت زينب تصنع القهوة . . . قالت زينب : وجهك دائما بشرة خير يا رقية , لقد عاد زياد فجرا .
ابتسمت رقية و هي تنظر للأم التي كان يكسو وجهها الرضا و قالت : بوركت عودته .

صبت زينب القهوة في الأكواب ثم وضعت فوقها اللبن , و بعدما وضعت الأكواب على الصينية توجهت إلى غرفة قريبة و فتحتها ثم أشارت لرقية التي كانت تحمل الصينية بالدخول , كانت الحجرة عبارة عن مكتبة ضخمة تصل إلى سقف الغرفة و في ركن من أركانها وضِع مكتب كبير أمامه كرسيين وثيرين , قُبالة المكتب كنبة صغيرة أمامها منضدة وضعت عليها رقية الأكواب .
ثم جلستا متجاورتين على الكنبة , قدمت زينب لرقية كوب القهوة التي لم يكن لها وجه و قالت : وجه القهوة استحى من جمال وجهك فلم يظهر .
ابتسمت رقية و تناولت القهوة من يدها شاكرة , بدأت زينب كلامها قائلة : أبي رحمه الله كان يلح علينا كى نصلى , و كنت أتهرب دوما منه , و في بعض الأحيان كنت أكذب و أخبره أنى صليت رغم أنى لم أفعل , لسنوات و أنا على هذه الحال , كنت متقدمة في دراستى و نحيا في رغد من العيش و لم يكن ينقصنا شيئا , و لن أخبرك أنه حدث أمر ما غيرنى , لكنها الهداية من الله, فإن لم يهد الله قلبك لن تهديكى كل أسباب الأرض أو مصائبها , فلقد استيقظت يوما و شعرت برغبة في القرب من الله , فأخذت حماما باردا و أخرجت فستانا جديدا من الخزانة كان قصيرا و بدون أكمام , لكنى شعرت أننى يجب أن أقف أمام الله بثوب جديد , فتوجهت إلى القبلة و سجدت و قلت له أنى أحبه و لكن

لا أرغب في الصلاة كما أن الاحتشام ثقيل على قلبى , و لم أطلب شيئا , أخبرته فقط بما في نفسي و تركته يفعل بى ما يشاء .
نظرت لها رقية في صمت , فأكملت زينب : و قناعاتى جاءت من تجربتى أن الإنسان إن كان قلبه نقيا هداه الله للطريق , فما من أحد يستطيع أن يقنعك بالصلاة إن لم يملأ الإيمان قلبك .
ثم توجهت زينب إلى المكتبة و طلبت من رقية أن تطلع على الكتب و تختار منها ما تشاء , وقفت رقية تنظر للمكتبة الشاهقة و استخدمت السلم لترى الكتب التي بأعلى , في ذلك الوقت دق جرس الباب فاستأذنت زينب لتفتح الباب و عادت بعد دقيقتين و معها شابة سمراء جميلة طويلة القامة و ترتدى غطاء رأس و ملابس محتشمة للغاية ,قالت زينب : بهية ابنة أختى.
بمجرد أن رأتها رقية هبطت السلم و توجهت إليها بابتسامة رقيقة و هي تمد يدها بينما رمقتها بهية بنظرة حادة و هي تنظر لها و لتنورتها القصيرة , جلسوا جميعا و لم تنزل بهية عينيها من على رقية , في حين قالت زينب : رقية ابنتى و صديقتى الجديدة.
كان الاستياء باديا على وجه بهية التي قالت : و لكن المرء على دين خليله , و أنتما لا تشبهان بعضكما يا خالتى .
ردت زينب بهدوء : الدين بالقلب و لا يعلم به سوى الله .
اعترضت بهية قائلة : الإيمان ما وقر في القلب و صدقه العمل .
كانت رقية تنظر بدهشة لبهية التي أظهرت بغض غير مبرر ,

لكنها آثرت الصمت , أما بهية فنظرت إلى خالتها و على وجهها ارتسمت فجأة ابتسامة صافية و هي تسأل : متى عاد زياد ؟ حمدا لله على سلامته .
قالت زينب : فجر اليوم , سلّمك الله من كل شر .
همّت رقية بالانصراف لكن زينب أصرت على بقاءها و هي تقول: لن تمضى قبل أن نصنع عصير الليمون .
ابتسمت رقية و حاولت الاعتراض لكن زينب قالت : الليمون مشروب الفتيات الجميلات .
ثم أشارت لبهية و قالت : هيا نذهب إلى المطبخ يا حبيبتى .
تحركوا جميعا للخارج و أخرجت زينب الليمون من الثلاجة و أعطت لبهية السكين و طلبت منها تقطيع الليمون , ثم قالت لرقية : هل تعلمين أن الرسول أمر الرجال أن يترفقوا بالنساء , و أطلق على النساء لفظ القوارير لشدة رقتهن .
تمتمت بهية و هي ترمق رقية بطرف عينها : عليه الصلاة و السلام .
فرددت رقية هي الأخرى : عليه الصلاة و السلام .
ثم قالت رقية : و لكن الكثير من الرجال المسلمين يُسيئون معاملة النساء .
قبل أن تنطق زينب قالت بهية في حدة : ليقوّموا النساء المعوجات, فالنساء ضلع أعوج لا يستقيم إلا بالشدة .

قطبت رقية حاجبيها و نظرت إلى زينب التي لم تفارقها الابتسامة, و قالت زينب : النساء يا بهية حوريات بالجنة .
فقالت بهية : النساء اللاتى يتقين الله في ملابسهن و شكلهن , أما الباقيات العاريات فحطب جهنم .
ردت زينب : إلا من تاب و آمن و عمل صالحا و لو آخر يوم بعمره .
قالت بهية بضيق : و هل نمشى طيلة حياتنا عاريات متبرجات و يساوينا الله معهن؟! .
سألتها زينب و قد بدا عليها الاستياء : و هل تقسمين رحمة ربك؟
أشارت بهية نحو رقية و قالت : و كيف ندخل بيوتنا من يثير بها الفتن ؟, هذه ملابس تُدخل أصحابها النار فهي قلوب لا تحمل سوى العصيان .
بدت رقية تشعر بالضيق و همت أن تقوم لولا سمعت صوت من وراها يقول : هل شققت عن صدرها ؟
نظرن جميعا ناحية الصوت و ارتسمت على وجه زينب ابتسامة واسعة في حين قفزت السعادة من عيون بهية , أما رقية فلم تشعر بشىء, فالضيق من كلام بهية جعلها تتسمر في مكانها .
قالت بهية غير عابئة بتعليق ابن خالتها : حمدا لله على سلامتك يا زياد .
ابتسم لها زياد قائلا : سلّمك الله يا بهية , كيف حال خالتى ؟

أومأت برأسها قائلة : بخير .
نظر زياد لرقية مبتسما و قال بهدوء و ود : كيف حالك يا رقية ؟
قامت رقية من مكانها و هي تبادله الابتسام و تقول : بخير يا دكتور , نحمد الله على استدارت الأرض .
تمتمت بهية بصوت مختنق : استطالت بيننا و بينك الأرض .
بينما تحركت رقية ناحية زينب و هي تمد يدها و تقول بامتنان: أشكرك على وقتك و كلامك الجميل .
أخذت زينب كفيها بين راحتيها و ربتت عليهما و قالت بود : أنا التي أشكرك على رؤية وجهك الجميل .
و هنا تمتمت بهية : هدى الله .
نظر زياد لبهية و هو مازال مبتسما و قال : صدقت يا ابنة خالتى هدانا الله جميعا فهو العالم بمن يستحق الهداية .
أخيرا مدت رقية يدها لبهية و هي تقول : فرصة طيبة لقياك .
سلمت بهية بأطراف أصابعها , و في الخارج لوحت زينب لرقية التي همت بركوب السيارة و كان زياد واقفا بجوارها يسألها : كيف حال كريم ؟
قالت رقية بصوت خفيض مازال مختنقا : بخير .
لاحظت أن زياد ينظر لها لأول مرة و لكنها نظرة حانية للغاية لم تفهمها إلا عندما قال : الجميلات لا تمسهن النار .
نظرت له بدهشة متسائلة : حقا ؟

فضحك و هو ينظر لها و يقول : نعم , جميلات القلب و الروح اللاتى لا يدافعن عن أنفسهن رغم أنهن يستطعن , اللاتى يؤثرن الصمت على إظهار العداء , اللاتى رغم وجوههن الجميلة إلا أنهن يحملن قلبا أروع .

شعرت رقية بتبدل حالها بعد تلك الكلمات فابتسمت في سعادة و قالت : طاب حديثك دوما .

ثم أخبرها أنه في انتظارها مرة أخرى بتحاليل كريم ليرى ما به .

استطالت الأرض بيننا : بمعنى أصبحت مستطيلة فاستحال اللقاء.

*****

إن أردت إفساد علاقة من قبل أن تبدأ فاخبر الناس , و إن أردت إنهاء علاقة بعد أن بدأت فاخبر الناس , و إن أردت تدمير رجل فسلط عليه النساء .

أثناء العشاء أخبرت رقية الجميع بما حدث في منزل زينب هانم, فكانت الصرخة الأولى لعمتها ماجدة التي قالت : أراكِ سعيدة بردة فعل هذا الكاذب المحتال .

قالت مادلين معترضة بهدوء : يا ماجدة يحمد للرجل ذوقه معها, فعادت ماجدة تقول بلهجة آمرة : لا تذهبى إلى منزلهم مرة أخرى , هؤلاء الناس يظنون أنفسهم أوصياء على البشرية .

لم ترد رقية و اكتفت بأن عوجت فمها , بينما وافقت فدوى عمتها و قالت هي الأخرى بضيق : لن يمضى وقت طويل و ستجدين نفسك كالفلاحات في ملابسهن , هؤلاء الناس يبدون نعومة كالحيات حتى يدخلنك في شباكهم .
اعترضت رقية بتردد و بصوت هادئ لا يضاهى حدتهم : لا أظنهم بهذا السوء , فهم لم يفعلوا شيئا ضايقنى باستثناء بهية .
أمسكت فدوى بالكلمة و قالت بسرعة : حسنا ألم تسألى نفسك لم احتدت عليك تلك الفتاة بهذه الطريقة ؟ إنها الغيرة يا رقية , إنها تحب ابن خالتها .
هزت رقية رأسها نافية و قالت : لا أظن ذلك .
قالت ماجدة : لأنك لا تعرفين حيل النساء و مكرهن , لم تسمحى لأحد من قبل أن يقترب منك .
صاحت فدوى و هي تنظر لأختها : و لن تسمح بهذا أبدا , أنا أعرف رقية .
كالعادة تدخلت مادلين على استحياء و قالت : لم لا تدعوها تقرر ما تريد ؟ ! لا تطبقوا عليها تجاربكم الفاشلة .
نظرت لها فدوى بضيق شديد و قالت ساخرة : احكى لنا إذاً عن تجاربك الناجحة .
قبل أن تنطق مادلين قاطعتهم أخيرا الجدة و قالت موجهة لهم جميعا الكلام : كفاكم , هي ليست صغيرة , لتفعل ما يحلو لها .

اعترضت ماجدة قائلة : لكن من واجبنا تحذيرها .
نظرت لها الجدة باستهزاء و قالت : ليتك حذرت نفسك من قبل يا ماجدة , و ليتنى حذرت نفسى من أخيك .
انتفضت ماجدة واقفة و نظرت لأرملة أخيها بضيق شديد ثم وجهت كلامها لرقية : لقد حذرتك , و إن لم تستمعى لتحذيرى فاذرفى الدموع التي لن تتوقف بعيدا عنا .
ثم تحركت مبتعدة و تركت الحديث مرة أخرى لفدوى التي لان صوتها قليلا و هي تقول : حبيبتى أنتِ مطمع لكل الرجال , من الطبيعى أن يعاملك هذا الطبيب بهذه الصورة في البداية , لكن صدقينى سيظهر فيما بعد وجهه القبيح .
زفرت رقية بضيق و قالت و هي تقوم بدورها من مكانها : تتحدثون و كأننى أهتم لأمره , و أنا لم أزد في حديثى عن كلمة (رجل مهذب) , اعتبرونى و كأنى لم أقل شيئا , لعنة الله علينا و عليهم .
ثم تركت المائدة و دخلت غرفتها و خلفها قام كريم و طرق الباب عليها فسمحت له بالدخول , جلس كريم بجوارها على السرير و قال : اسمحى لى أن أقول رأيى دون أن تسخرى منى .
نظرت له من طرف عينها و ابتسمت و هي تضع يدها حول رقبته : قل يا حبيبى .
قبّل أصابعها و قال : لم يكذب الطبيب عندما أخبرك أنك جميلة

القلب , فأنا يا خالتى أعلم عن كل أعمال الخير التي تقومين بها في الخفاء , و أعلم أنك كثيرا ما تخبرينا بأنك ذاهبة لحفل أو لزيارة صديقة و تكونين بجمعية التقوى التي تساعد الأيتام و مرضى الفقراء , لقد رأيتك أكثر من مرة و أنت تخرجين منها و كذلك أخبرنى صديقى ياسين ابن مديرة الجمعية , أنا فخور بك و أحبك لكن . . . .

ثم صمت فقالت رقية : لا ينبغي أن تخبر أحدا بما تعرفه عنى , فنشر هذا الأمر يفقده جماله .

قال كريم معترضا : بل يفقده ثوابه يا خالتى .

نظرت له بدهشة و قالت : ثوابه ؟ أي ثواب ؟ أنا لا أفكر بتلك الطريقة , أنا أفعل هذا لأننى أحب مساعدة الناس .

رد كريم : أي لوجه الله , و لقد شرح لنا معلم اللغة العربية أن المرء عندما يعمل الخير في الخفاء يثيبه الله .

نظرت له بدهشة و قالت : و مادمت مهتم هكذا بالثواب و العقاب لماذا تشاهد تلك المجلات الخليعة ؟

ازدرد لعابه و هز كتفه و قال : كلنا نرتكب الأخطاء , لكنى اتفقت مع ياسين أننا لن نفعل هذا مرة أخرى و سنذهب للصلاة في المسجد .

ضحكت رقية و قالت : ليس مهما أن تصلى , الأهم أن تؤمن بالصلاة .

حملق كريم بها متعجبا من كلامها و سألها : من أين جئت بهذا الكلام ؟

فقالت و قد سرحت بعينيها بعيدا : لقد قالته لى زينب هانم , أن الإيمان أساس الصلاة .

اقترب منها كريم و وضع قبلة على خدها و قال : أظنهم قوما طيبين .

ثم سمعا طرقا بالباب فقام كريم و فتحه فوجد مادلين فاستأذن و انصرف , قامت رقية من فوق السرير و جلست أمام المرآة تدهن عنقها و وجهها بالدهان و انتظرت أن تتحدث مادلين ,لكن الأخيرة ظلت صامتة فنظرت لها رقية من خلال المرآة و سألتها : هل جئتنى لأسمع صمتك ؟

تنهدت مادلين و طقطقت أصابعها بتوتر و قالت : أظن أن أهلك لديهم الحق في تحذيرك , نحن نحيا حياة هادئة يا رقية فلا تدخلينا في مشاكل , أنت لا تعرفين الرجال , فلا يأتي من وراءهم غير الحزن و الهم .

أدارت رقية رأسها لتواجه مادلين و سألتها في دهشة : أراكِ بدلت رأيك ؟ هل من سبب ؟

مطت مادلين شفتها السفلى و هي سارحة و قالت : نهائيا و لكنى فكرت فوجدت أن احتمالية أن يكون كلامهم صحيحا تتجاوز الثمانين بالمائة , فلا يجوز إذاً أن نلعب على احتمالية العشرين .

أطالت رقية النظر لها و هي تدير الكلام برأسها ثم سألتها بهدوء:
و ما الذى يجب علي فعله ؟

قالت مادلين : أليس بينكما موعدا غدا بالعيادة , إذا لا تذهبى له نهائيا , لا هو و لا أمه .

قالت رقية معترضة : لا يصح ألا أذهب و هو في انتظارى , هذه أفعال صبيانية .

قالت مادلين باستهتار : لتكن أفعال صبيانية لا بأس و لكنها ستجنبك ألما طويلا , و هو سيضايقه فعلتك و لن يقترب منك ثانية .

هزت رقية رأسها متفهمة و عزمت على عدم الذهاب في اليوم التالى .

مضى اليوم التالى و رقية تتجنب التفكير بالأمر و عندما اقترب الوقت الذى كان من المفترض أن تذهب فيه إلى زياد أخذت تلهى نفسها بالثرثرة في الهاتف مع صديقتها , ثم وقفت بالمطبخ تصنع كعكة , و أخيرا قررت الذهاب إلى النادى لقضاء باقى الوقت .

*****

في صباح نسائى جديد التف الجميع حول مائدة الإفطار و كانت ماجدة تمسك بالجريدة تطالع أخبار الحرب , ثم تركتها جانبا عندما وجدت الوقت يمضى , سألتها فدوى : هل من جديد ؟

أجابت ماجدة بقرف : ليت كل الرجال يموتون في الحرب و نتخلص منهم .

قال كريم بصوت هامس : أبعد الله الشر عنا .

نظرت له فدوى بعتاب و قالت : أنت مختلف يا حبيبى , أنت تربية النساء لن تكون مثل بقية الحمقى من الرجال .

نكش كريم شعره بيده و تمتم : الحمد لله أنك توقفت عن مناداتى كفتاة .

سألت الجدة : هل هناك هدنة كما يقولون ؟

قالت ماجدة : لا أظن , الرجال يعشقون الدم و الدمار , الهدنة بالنسبة لهم موت .

ثم عادت تمسك الجريدة و تقول : اسمعن هذا الخبر , إنهم لا يكتفون فقط بتدمير أنفسهم بليرغبون في هلاكنا معهم , فالخبر يقول أنهم في حاجة إلى نساء للتمريض في الميدان و أن من ترغب في هذا ستتلقى تدريبا يستمر لأسبوعين قبل سفرها .

حكت رقية ذقنها و قالت : مغامرة لطيفة .
صاحت بها فدوى : هل جننت ؟ أياك .
بضيق أجابت رقية : ليس هناك وصى علي , أنا أفعل ما يحلو لى , و على الرغم من أنها كانت مجرد جملة , إلا أن تدخلك سيجعلنى أفكر بجدية .
نظرت فدوى لأمها تستغيث بها , لكن الأم أكملت الطعام و لم ترد . . . . ثم دق الهاتف فقام كريم يرد , فسمع من الناحية الأخرى صوت زياد يقول : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .
فرد كريم : أهلا و مرحبا .
الواقع أن كريم لم يعتد السلام فلم يجد ما يقوله غير هذا , سأله زياد : هل الأنسة رقية هنا ؟
شعر كريم أن المتحدث هو زياد , فنظر للسفرة الملتف حولها الجميع و لم يعرف بم يجيب , فتردد قبل أن ينطق : خالتى . . . نعم . . . لكنها . . . تتناول طعام الإفطار .
سأله زياد : هل هي بخير ؟
قال كريم : نعم بخير .
عاد زياد يسأله : و أنت كيف حالك يا رجل ؟
فقال كريم : بخير أنا أيضا .
فقال زياد : الحمد لله , أخبر رقية أنى كنت أطمئن عليها لأنها لم

تأتِ بالأمس .
قال كريم بصوت خفيض : سأفعل .
و عندما أغلق الخط و جلس سألته جدته : من كان على الهاتف؟
لم ينطق كريم و ظل يحملق بجدته , فنظر له الجميع و سألوه في صوت واحد : ما الأمر ؟
بلع ريقه و قال : إنه الطبيب .
زفرت ماجدة بضيق و قالت و هي تلقى بالجريدة بعيدا : لن يتركنا و حالنا .
بينما سألت فدوى ابنها : ماذا كان يريد ؟
علقت رقية عينيها بكريم و هو ينطق و قلبها يدق بقوة مع كلماته : لقد كان يريد أن يطمئن على خالتى لأنها لم تأت في الموعد .
سألته فدوى : و ماذا أخبرته عنها ؟
أجاب : لم أزد عن أنها بخير .
سألته رقية بضيق : لماذا لم تعطنى الهاتف ؟
تلعثم كريم قائلا : أنا . . . أنا . . لم . . لا . . لم أفهم ما يجب . أن يكون . . لا .
ألقت رقية بالمنشفة التي كانت تضعها أمامها و قالت لكريم: العيب ليس عيبك , العيب على من يعطون لأنفسهم الحق للتدخل في شؤونى .

ثم قامت و أمسكت بالهاتف , لكنها تسمرت و لم تعرف ما عليها فعله , فعادت تضع السماعة و ارتدت ملابسها و خرجت للتمشى.
لم تقودها قدماها لشىء , كانت فقط تسير تحت الشمس و هي شاردة , حتى أنها نست ارتداء نظارتها السوداء و شعرت بعد نصف ساعة أن عينيها تؤلمها , فعادت إلى البيت و ركبت سيارتها و لم تدر بنفسها إلا و هي بالمشفى الخاصة بتدريب الممرضات للذهاب إلى الميدان .
توجهت للإستقبال و سألت عن المكان المفترض الذهاب إليه , فطلبت منها الموظفة أن تتوجه لغرفة الطبيب المسؤول بالطابق الأول , صعدت رقية إلى هناك و طرقت الباب و عندما سمعت الإذن دخلت فكان أمامها زياد .
آخر ما كان يخطر ببالها أن يكون هو هناك , و هي تقطع المسافات لتهرب منه, و كأنها تفر تجاهه , عندما رآها اتسعت ابتسامته و قام من فوق مكتبه و قال : مفاجأة جميلة .
قالت و هي تتحاشى النظر له : أنا أيضا تفاجئت .
قطب حاجبيه بدهشه و قال : لم تكونى تقصدين غرفتى ؟
قالت و هي تجلس أمامه : بل أتيت للتدريب للذهاب إلى الميدان.
فتح علبة الشيكولاتة التي أمامه و عرضها عليها و هو يقول :

تفضلى , لكن من الغريب أن تفكرى بتلك الطريقة .
أخذت واحدة و شكرته و هي تقول : ليس غريبا , أنا بحاجة لشىء مختلف .
وضع يده تحت ذقنه و قال بجدية : الميدان ليس أمرا مختلفا , الميدان حياة أو موت , أعتقد أنك بحاجة للتفكير .
ردت بإصرار : لقد فكرت و قرارى هو الذهاب .
بدأ زياد في حك ذقنه و قبل أن ينطق سمع طرقات بالباب فدخلت مجموعة من الفتيات قلن أنهن جئن من أجل التمريض للذهاب إلى الميدان , فخطف نظرة سريعة لرقية قبل أن ينهض و يقول : حسنا تعالين كى نبدأ .
بعد مرور أكثر من ساعتين كانت رقية تغسل يديها و قد بدا عليها الإرهاق الشديد , و كانت أغلب الفتيات قد انتهين , وقفت رقية تسأل الممرضة المسؤولة : هل من شيء آخر أتعلمه اليوم ؟
أجابتها الأخيرة : اسألى الطبيب .
كان زياد واقفا بجوار المكتب يتحدث في الهاتف و هو يدير ظهره لها , و سمعته يقول : لا أستطيع أن أخبر خالتى بذلك يا بهية , اخبريها أنتِ و أبلغينى قرارها .
ثم صمت ليستمع لها و عاد يقول : سأقف بجانبك على أي حال.
بعدها ألقى السلام و أغلق الخط , و بمجرد أن أدار ظهره و وجد رقية عابسة فتعجب لعبوسها الشديد , وسألها : ما الأمر ؟

فأجابت باقتضاب : هل هناك ما يجب علي فعله أم انتهيت اليوم ؟
أجاب بهدوء : لا شيء , حتى و إن كان هناك فأنتِ يبدو عليك التعب و لن أحملك فوق طاقتك .
قالت بحدة : دعك مما يبدو علي أنا أعرف كيف أعتنى بنفسى .
نظر لها صامتا و لم يبد على وجهه أي تعبير , لكنه أشار لها بالانصراف و هو يقول : حسنا لا يوجد شيء .
في الطريق كانت رقية تقود في صمت و عقلها يخبرها بأمر واحد فقط (صدقت فدوى عندما أخبرتها أن بينه و بين ابنة خالته أمرا ما , و من المؤكد أن كلامه اللطيف معها كان خوفا من أن تحتد على ابنة خالته فتحزن الأخيرة) , كلمة واحدة نطقت بها في النهاية : لعنة الله على كل الرجال .

*****

الخوف يعرف طريقه إلينا , يدرك ما يدور بالعقول , يعرف متى تتسارع الأنفاس , يدرسنا في الخفاء ثم يباغتنا في أي وقت . . . الخوف يجردنا من المنطق و يهبنا الأرق و يحرمنا الراحة , الخوف طاغية لا يقهره سوى الحب .
مع دقات الثالثة صباحا شعرت فدوى بالعطش الشديد فقامت إلى المطبخ لتجلب كوبا من الماء , و في طريق عودتها قررت أن تطمئن على كريم ففتحت الباب بهدوء و أطلت على سريره لكنها لم تجده , أضاءت المصباح فبدت الغرفة فارغة تماما , نادت عليه بصوت خفيض في الممر ثم نظرت إلى الحمام فوجدته مظلما , شعرت بالقلق الشديد فتوجهت لغرفة رقية و هي تقول بصوت مرتعش : أغيثينى كوكة ليس بغرفته .
أزاحت رقية الغطاء بسرعة و سألتها بقلق : هل بحثت عنه في الحديقة ؟
و كأن الأمل راود فدوى فقالت بصوت ملهوف : لا , هل تعتقدين أنه هناك في ذلك الوقت ؟
قامت رقية من السرير و هي تقول : دعينا نرى .
نزل الاثنان و خرجا إلى الحديقة التي كانت تغوص في الظلام إلا

من بصيص المصباح المعلق على الباب الخارجي , ضربات قلب فدوى أخذت تتسارع و هي تنتحب و تقول : لقد رحل , لقد قرر أن يتركنى , لم يرحم أمه , هو كباقى الرجال مهما حاولنا تغيير طبيعته .

ثم بدأت تنتحب و تقول : لكنه ابني و حبيبي و لا أطيق فراقه .

ربتت رقية على كتفها و قالت تطمئنها : يستحيل أن يفعل كوكة هذا , هو يحبك كثيرا يا فدوى .

صاحت فدوى و هي تنظر حولها كالمجنونة في كل مكان : بل فعل , تركنى باختياره , لم يودعنى , قرر أن يمضى في الظلام .

نظرت رقية هنا و هناك و قالت باضطراب : لا أصدق أن يفعل هذا , لماذا يتركنا دون مقدمات , و إلى أين يذهب ؟

و فجأة خرجت ماجدة مع البيت و هي تمشط شعرها بيدها و تسأل بتوتر : ما الأمر ؟ شعرت بكما .

صاحت فدوى : كوكة تركنى , لقد هرب , و أقسم أن أباه وراء هذا الأمر .

خبطت ماجدة على رأسها بكف يدها و وقعت على أقرب كرسى و صرخت : لا , لا يمكن , لا يمكنه فعل هذا بنا , إنه ابنى الذى لم أنجبه , لا يمكن أن يتركنا هكذا .

ثم صاحت و هي تشير إلى فدوى بغضب : لعنك الله مائة مرة لقد حذرتك من معاملتك له كأنثى , كيف سنرجعه الآن ؟ لا

سامحك الله يا فدوى , لا سامحك الله .
نظرت رقية لعمتها بضيق و هتفت بها : كفى , أما يكفيك ما هي فيه .
و بعد ثوان جاءت مادلين و في يدها الجدة تتوكأ على ذراعها , و عندما علموا بالأمر أضاءت مادلين كل البيت و هي تقول : أنا على يقين من أنه مختبىء بمكان ما في البيت .
أما الجدة فوضعت رأسها بين راحتيها و هي تقول بصوت يتألم : ردك الله يا حبيبى , و الله إن عاد . . . .
ثم أجهشت بالبكاء , و بدأوا جميعا ينتحبون , أما رقية فصعدت بسرعة و أحضرت مفاتيح السيارة و ركبت و هي تصيح بهم : لن أعود إلا به .
ارتفع صوت الجدة تقول : أخبريه أننا سنعامله كرجل , أخبريه أنه رجلنا و أننا بدونه كلنا عجائز عاجزات .
ثم نظرت إلى السماء و قالت و الدموع تملأ عيونها : رده لنا يا الله .
في ذلك الوقت كانت أصوات المساجد تقيم صلاة الفجر , فاستندت و قامت لتصلى .
لم تكن تعرف رقية إلى أين تذهب , هي حتى لا تعرف بيت أبيه , لكنها تخشى أن تعود بدونه فتقضى على آخر أمل لهم , و شعرت فجأة أنها تريد أن تجهش بالبكاء , فأوقفت السيارة أمام المسجد

و وضعت يدها على وجهها و بكت كما لم تبك من قبل , كانت تردد : لماذا يا حبيبى ؟ لماذا تتركنا هكذا ؟ ألم تخبرنى أنى أقرب مخلوق لك , لماذا لم تنبهنى لما ستفعله . . . .
كانت تبكى لدرجة أن الرجال الخارجون من المسجد تعجبوا لرؤيتها فاقتربوا يخبطون لها على الزجاج يسألوها ما الأمر , فتحت الزجاج و قالت بصوت متهدج : لا شيء , أعتذر .
و قبل أن تدير السيارة مرة أخرى سمعت صوته يقول : خالتى ما الأمر ؟
نظرت له غير مصدقة و أسرعت تخرج من السيارة و أخذته بحضنها و هي تسأله : أين كنت ؟ لم رحلت ؟
احتضنها هو الآخر بقوة و ربت على ظهرها و قال : ألم أخبرك أنى سأذهب مع ياسين للصلاة في المسجد !
نظرت له و الدموع تملأ عينيها و همست : فقط كنت تصلي ؟
ثم ضمته لصدرها بحنان , وعندما عادا و سمع الجميع صوت سيارتها تدخل جروا نحو السيارة و فتحوا له الباب و احتضنوه جميعا , كل واحدة تخطفه من الأخرى , حتى إنه أخذ يضحك على ما يفعلونه و يقول : يالا روعة النساء , معهم الحياة كلها دلال .

*****

في المشفى وصلت رقية متأخرة قليلا و كانوا قد بدأوا , لكن زياد لم يكن معهم ذلك اليوم , و علمت أن التدريب مناوبة بينه و بين الطبيب الآخر , كانت تستمع بإصغاء شديد إلى كل ما يقوله الطبيب , حتى إنها لم تلحظ الفتاة التي كانت تراقبها بضيق شديد , و عندما بدأ الطبيب في تقسيمهم إلى مجموعات فوجئت أن بهية تقف بجوارها , ابتسمت رقية لها و قالت : مرحبا بهية .
فردت الأخيرة : يبدو أنك لا تتركين العائلة أبدا , في البيت مع خالتى و في المشفى مع ابنها .
فهمت رقية ما ترمى إليه لكنها قررت تجاهلها و اكتفت بابتسامة لا تعبر عن شيء .
عندما اشتركت و بهية في عمل واحد أدركت أن بهية تتفوق عليها كثيرا , فهى تعمل بدقة و كأن لديها خلفية جيدة عن العمل , لقد أنهوا عملهم قبل باقى المجموعات بفضلها , حتى أن رقية قالت لها بعد الانتهاء : هل سبق و درست التمريض ؟
أجابت بهية باقتضاب : لا
شعرت رقية أنها تكذب , لكنها أسرتها في نفسها و لم تبدها لها .
في المساء خرجت رقية مع مادلين لشراء قبعات جديدة لمجابهة

شمس الصيف , و أثناء مرورهم ببعض المحال لمحت رقية بالداخل زياد بصحبة زينب هانم , فهمست لمادلين و هي تشير إليهم : انظرى إنه زياد و أمه .
فكرت مادلين قليلا ثم قالت : دعينا ندخل و كأنك لم تلحظيهم .
دخل الاثنان و وقفا بعيدا , حتى لمحهما زياد و اقترب قائلا : السلام عليكم و رحمة الله .
ردت مادلين : مرحبا بك .
بينما نظرت له رقية قليلا قبل أن تجيب : و عليك السلام .
فابتسم و قال : كيف حالكما ؟
عادت مادلين خطوات للخلف و تركتهم , في حين قالت رقية : بخير .
كان يبدو عليه أنه سينهى اللقاء لاقتضابها في الكلام , فقالت : لقد رأيت بهية اليوم .
هز رأسه و قال : جيد , لقد أقنعت خالتى إذاً .
فعادت تقول : تدعى أنها لا تعرف شيئا عن التمريض .
فقال زياد ببساطة : هي لا تدعى , هي لا تعرف الكذب .
شعرت رقية بغصة في حلقها لشعورها بدفاعه عنها , فعادت تدافع عن وجهة نظرها قائلة : تتصرف بشكل جيد جدا و كأنها درست من قبل .
فعاد يقول : هي ذكية و دائما تستعين بالله في كل عمل تقوم به.

صمتت رقية و أدارت وجهها دون إذن , فسمعته يتحرك و يتركها, أثناء شراءها سمعت زينب هانم تقول : جميلتى لم تسلم علي . نظرت للمرأة الواقفة بجوارها و شعرت بخجل شديد , فمالت عليها و قبلتها , بينما تحرك زياد خارجا من المحل و هو يقول لأمه : سأنتظرك بالسيارة .

اعتذرت رقية و أخبرت زينب أنها لم تكن تعلم بوجودها مع زياد, فهزت زينب رأسها متفهمة رغم علمها أنك تلك كذبة , و قالت بهدوء : لا بأس يا حبيبتى أنا رأيتك و جئت لأسلم عليك . و بعدما انتهوا من الشراء خرجوا سويا من المحل فتوجهت رقية مع زينب إلى السيارة و اقتربت من باب زياد , فخرج الأخير و نظر لها في صمت , فبادرته قائلة أثناء دخول أمه السيارة : هل ستأتى غدا ؟

هز رأسه نافيا و قال : تم استدعائى للميدان و سأرحل فجر اليوم, رغم الضيق الذى ملأ قلبها إلا أنها قالت ببشاشة : استدارت لك الأرض .

لكنه نظر إليها طويلا قبل أن يقول مقتضبا : أشكرك .

*****

نحن ضحايا ما اعتادنا عليه. . . . فضع في حساباتك أن كل ما اعتدت عليه سيودى بك في النهاية.

صباح النساء مراسلكم من بيت النساء كريم يرحب بكم من أمام الشرفة و أنا في انتظار أبي . . . نعم نعم كما سمعتم أبي سيحضر الآن و لا أحد يعلم بهذا الأمر غيرى أنا و مادلين , و هذا هو السر الذى لم أخبركم أنتم أيضا به من قبل , فمادلين طليقة أبي امرأة ذكية إلى حد مذهل , فأنا كنت أعتقد أنها تكره الرجال مثلهن, لكن أبي أخبرنى منذ أيام أن مادلين كانت تتحدث إليه منذ أن طلقها و كأنهما أصدقاء , لدرجة أن الوحيدة التي ندم أبي على تطليقها كانت مادلين , يقول أبي حرفيا (تقتلك تلك المرأة التي تُشعرك أن ما من شيء حدث , و أنها تتكيف مع كل وضع جديد, مادلين لم تعاتبنى يوما لدرجة أنى تمنيت عتابها , و لم تصرخ بوجهى يوما حتى ظننتها لا تتأثر , و لكنها كانت أكثر النساء اللاتى عرفتهن رقة و إرهافا) لذا فهى الوحيدة التي على علم بحضور أبي اليوم ليطلب من أمى أن أذهب لأبيت معه يومين من كل أسبوع , و وعدته بأن تؤازره في طلبه .

دق جرس الباب و كانت الساعة تشير إلى اقتراب السابعة مساء, فتحت الخادمة الباب و نظرت إلى أشرف التاجى والد كريم و شعرت باضطراب شديد , فقد رأته منذ أعوام عندما أتى و تذكرت تلك العركة الكبيرة التي حدثت و كيف انتهت بأن اتصلن جميعا بالشرطة و اتهمنه بالتعدى عليهن في المنزل , و بالفعل كان أشرف قد سبهم جميعا بأقذع الألفاظ و توعدهن بالأذى , لكنه الآن تغير كثيرا خاصة عندما أنجب من زوجته الجديدة ثلاثة فتيات في بطن واحدة . . . .

لم تستطع الخادمة أن تنطق بكلمة أو تدعوه للدخول , فسألتها رقية التي كانت تقلم أظافرها بالقرب من الباب : من بالباب ؟

فأفسحت الخادمة الطريق ليظهر أشرف أمام رقية , فهبت الأخيرة واقفة و صاحت به في غضب : يالك من وقح , كيف تجرؤ على المجىء ؟

قبل أن ينطق أشرف سمع صوت كريم الذى رآه من الشرفة يهبط الدرجات مسرعا و هو يقول : أرجوكِ يا خالتى استمعوا فقط له.

حولت رقية نظرها نحو كريم و صاحت به : هل أنت على علم بقدومه ؟

جرى كريم و وقف بجوار أبيه الذى ضمه لحضنه , و نطق أخيرا أشرف قائلا : أريد أن أقابل فدوى بعد إذنك يا رقية .

نظرت رقية له باحتقار ثم عادت تجلس على الكرسى و تقلم

أظافرها و لم ترد عليه , نظر أشرف لابنه متسائلا , فقال كريم : سوف أناديها أنا .
صعد كريم لغرفة أمه و كانت مرتدية ملابسها و تستعد للخروج, و عندما رأت علامات الحيرة على وجهه سألته : ما الأمر يا حبيبى, لقد وعدتك أنى سأشترك لك في كرة القدم و ستترك البالية نهائيا .
أجاب كريم بتردد : ليس هذا هو الأمر يا أمى , و لكن هناك شخص بانتظارك في الأسفل .
سألته بدهشة : شخص ؟ أي شخص ؟
لم يرد كريم , فأسرعت فدوى إلى أسفل و بمجرد أن رأت أشرف صاحت به : إلى الخارج و إلا طلبت لك الشرطة .
اقترب كريم منها و أمسك بكفها و وضع قبلة عليه و هو يتوسل إليها : أرجوك يا أمى استمعى له .
في ذلك الوقت جاءت مادلين من الخارج و نظرت لأشرف و هي لا تدرى ماذا يجب أن تقول , لكنها رأت فدوى تصيح مرة أخرى بالخادمة : أطلبى الشرطة حالا .
وقفت الخادمة مترددة , و هنا اقتربت مادلين من فدوى تحاول أن تُهدئها قائلة : لنستمع له فقط يا فدوى .
نظرت لها فدوى بضيق و صاحت : نستمع لهذا ؟ أنسيتى ما فعله بنا .
و هنا تكلم أشرف بصوت عال قائلا : أنا هنا من أجل ابنى .

صرخت فدوى : أي ابن ؟ الذى لم تسأل عنه طيلة حياتك ؟
نظر أشرف لكريم و هو متردد أن يخبرهم أنه يذهب إليه بالمدرسة أسبوعيا , لقد طلب منه كريم أن يكون هذا سرا منذ سنوات , و لكن آن الوقت ليتكلم , قال أشرف : أعلم كل شيء عن ابنى و أذهب له باستمرار .
فتحت فدوى فمها و نظرت لكريم غير مصدقة و صاحت به : ماذا كانت حاجتك لمثل هذا الأب و أنا التي أعطيتك كل شيء ؟
رد أشرف قائلا بحزم : ما الذى أعطيته له ؟! لقد جعلتم منه مسخ و شوهتوه بأفكاركم و عقدكم , لقد قتلتم رجولته .
صرخت به فدوى : و ماذا فعلت له أنت ؟
قال أشرف : انقذته منكم , كنت بجانبه عندما خط شاربه و ظهرت رجولته التي لا تعرفون عنها شيئا , كان يتخبط و لا يعرف أي شيء , فوجهته و أخبرته عن كل تساؤلاته التي لن تستطيعوا أن تجيبوه عنها , ابنى يعرف عن دورة النساء و ميولهن أكثر ما يعرف عن احتلام الرجال , لقد قضيتن عليه .
و هنا وقفت رقية و أشارت للباب و صرخت : إلى الخارج أيها الحقير .
ربما لو اقتربت منه رقية أكثر من ذلك لصفعته على وجهه لكن مادلين وقفت حائلا بينهما و هي تصيح بهم : استمعوا فقط لبعضكم , من أجل كريم .

ألقت رقية بالمبرد و جرت تصعد لغرفتها و هي تستشيط غضبا , بينما وقفت فدوى تنقل بصرها ما بين ابنها و طليقها , و عندما رأت الدموع في عين كريم رق قلبها فسألت أشرف بضيق : ماذا تريد الآن ؟

حاول أشرف أن يسيطر على أعصابه و يختار كلماته و هو ينظر لمادلين مستعينا بها : أريد كريم يومين من كل أسبوع ليبيت معى .

أطلقت فدوى ضحكة جنونية استمرت لثوان ثم توقفت فجأة و صاحت به : أنت مجنون أليس كذلك ؟

ثم نظرت لابنها و سألته : هل توافق على هذا الكلام ؟ هل تستطيع الابتعاد عن أمك ليومين ؟

صمت كريم حتى لا يضايقها , فشعرت أنه يوافق فصرخت به : هل ستطيق أن تجلس في بيت واحد مع زوجة أبيك ؟ أتدرى ماذا تكون زوجة الأب ؟

فرد كريم : تكون امرأة طيبة كما أخبرتينى عن كل النساء , تكون مثل مادلين عاقلة و ذكية و مثل خالتى رقيقة و قوية و مثل عمتك حنونة و معطاءة و مثلك أم .

صفعته فدوى على وجهه و هي تصرخ : صه , ما من أحد مثل أمك أبدا .

و هنا جذبه أشرف إليه و ضمه لحضنه و صاح بها : أياك أن

تلمسيه مرة أخرى .
قبل أن تصرخ به فدوى , ابتعد كريم عن أبيه و ارتمى في حضن أمه و قال : بل هي أمى و تفعل ما تريد .
فنظرت له فدوى بحنان و أحاطته بذراعيها و همست له : هل تريد الذهاب ؟
فنظر لها متوسلا : فأومأت برأسها و قالت و الدموع تسيل على خدها : لا تتأخر عن يومين .

*****

كانت رقية تذهب بانتظام لانهاء التدريب بالمشفى , و كانت ترى بهية كل يوم , الأخيرة كانت كعادتها لا تطيق الكلام مع رقية, و رقية لا تفتح معها مجالا لأى كلام , لكن دائما كانا يتدربان سويا , زياد لم يعد من الميدان طيلة تلك الفترة , و رقية تحدثت هاتفيا مع زينب هانم مرتين للإطمئنان على صحتها . . . . . و في اليوم الأخير قال لهم الطبيب : كلكم اجتزتم التدريب بمهارة و الوطن في أمس حاجة لمساعدتكن , أرجو منكم المجيء غدا لاستلام بعض المهمات الطبية التي ستأخذوها معكم أثناء السفر .

سألته بهية : متى تقرر السفر؟

أجاب : الأسبوع القادم بإذن الله .

عندما عادت رقية للبيت كان الجميع يجلسون بالحديقة أخبرتهم بالأمر فكانت فدوى و عمتها أكبر المعارضين , حتى أن عمتها صاحت بها : و الله لأغلق عليك البيت و لا أتركك ترمين نفسك للتهلكة .

كانت رقية قد عزمت أمرها فلم تشأ أن تجادلهم , هي فقط قررت و أخبرتهم بالأمر , و عندما رأت فدوى الإصرار بعينيها نظرت لأمها و صاحت بها : قولى شيئا , أليست ابنتك ؟

أسندت أمها رأسها على عصاها و نظرت لابنتها و قالت بهدوء : لن تتحملى الحرب يا رقية , أنت لا تعرفين عنها .

قالت رقية برقة و تودد لأمها : سأتحمل يا أمى , ابنتك قوية .
قالت أمها : من أين لك بتلك القوة أنتِ التي تشترين ثوبا كل أسبوع , و تتحممين بأغلى العطور , و تذهبين مرتين أسبوعيا لصالون التجميل .
قالت رقية تطمئنها : سآخذ كل أدواتى معى , و كل عطورى , و ثيابا كثيرة حتى أغير باستمرار , سأحمل أدوات النظافة خاصتى, و أحذية مريحة للغاية , لا تخافى يا أمى , سأكتب لك كل يوم لتطمئنى علي .
صاحت بها فدوى : هراء , كل هذا هراء , لقد تبدل حالك منذ أن قابلت هذا الطبيب الملعون .
قالت رقية باستياء : ما تقوليه هو الهراء , فأنا لم أقابل زياد سوى ثلاث مرات و كلهم صدفة , و حالى لم يتبدل و كفاك تخويفا لأمى.
عادت فدوى تصرخ بأمها : أراك صامتة ؟؟؟
فقالت الأم باستسلام : ستفعل ما عزمت عليه , فلتفعله إذا برضاى حتى يوفقها الله .
خبطت فدوى على رأسها و قالت ماجدة بانفعال : الله , الله لا يهتم بمختلين مثلكم , هو في الحرب هناك مع الجنود يدفعهم لقتل بعضهم .
و هنا صرخ كريم الذى كان صامتا طيلة الوقت : الله في كل مكان

يا عمتى , لا تتحدثين عن الله هكذا , هذا حرام .
نظرت له ماجدة بغضب و قالت : حرام ؟ حرام يا شيخ كريم ؟ و ما هو الحلال ؟ أن يتركنا هكذا , أن تذهب شابة في عمرها و جمالها للموت ؟ لقد تركنا الله منذ سنوات طويلة قبل أن تنجبك أمك .
بضيق شديد صاح كريم : أنتن من تركتوه و ابتعدتم عنه و لم تتحملوا القليل من المصائب التي كان مع كل منها يسر كبير .
ضحكت ماجدة بسخرية و غيظ و سألته : أي يسر هذا الذى تتحدث عنه .
قال مترددا : لولا خيانة زوجك لك و اعترافه في النهاية بأنه ظلمك لما كتب لك كل ثروته التي تنعمين بها و لا تذكريه بكلمة رحمة واحدة .
ثم نظر لأمه و قال : حتى أنتِ يا أمى لولا قسوة أبي معك ما كنت تلك المرأة القوية التي يستند عليها الجميع و كأنك وطن لكل الناس , لقد خسرت أبي و ربحت نفسك .
قاطعتهم رقية قائلة : كفاكم جدلا , كل واحد بهذا المنزل يحمل قناعاته بعقله و قلبه فلا يفرضه على الآخرين .
و لم تمهلهم فرصة أخرى للكلام و تحركت مبتعدة عنهم .
في صباح اليوم التالى كانت رقية تتسلم و زميلاتها المهمات و كتيبات صغيرة طلب منهن الطبيب حفظها عن ظهر قلب , لكن

العجيب أن بهية لم تأت هذا اليوم , و عندما ذهبت رقية في اليوم التالى أيضا مع زميلاتها لم ترى بهية .
في المساء عندما كانت رقية تعد بعض الأشياء معها , كان الجميع يساعدوها على تذكر كل شيء , فقد رتبت لها عمتها ملابسها و قامت بكيّها جميعا و وضعها بأكياس حتى لا تتسخ , بينما أعدت لها مادلين المنظفات التي ستحتاجها , و اشترت لها العطور التي تحبها و الصابون المخصص الذى تستعمله , أما فدوى فقد أعدت لها الأحذية و الشرابات المناسبة . . . . و لما دخل كريم الحجرة كان معه كيسا متوسطا ملفوفا بعناية , سألته رقية : ماذا به ؟
أجابها و هو يضع الكيس على السرير : مصحف و سجادة صلاة و عباءة , عدينى فقط أن تقرأى القرآن و لا تعدينى بالصلاة , فأنت أخبرتنى أن الصلاة يلزمها الإيمان , و لكنى وضعت السجادة لك إن رغبت في الصلاة أي وقت .
ابتسمت رقية و قالت : أعدك بقراءة القرآن , رغم أنه صعب القراءة للغاية .
ابتسم و قال و هو يضع قبلة على خدها : حاولى و سيساعدك الله .
ثم سمعوا صوت الجرس فنزلت رقية لتفتح حيث كانت الخادمة غير موجودة , و عندما انفتح الباب كانت أمامها زينب هانم حاملة في يدها صندوقا كبيرا , استقبلتها رقية بفرحة حقيقية

و حملت عنها الصندوق و أجلستها بسرعة حتى لا تتعب , قالت زينب هانم : أرجو أن تقبلى تلك الهدية منى , إنها بعض المقرمشات و المعجنات التي تستطيعين الاحتفاظ بها لوقت طويل لتناولها هناك , أهم شيء احكمى غلق الصندوق دائما .
شكرتها رقية بشدة و قالت : إنها أجمل هدية و لم يخطر أبدا ببالى أن آخذ معى طعاما .
ضحكت زينب و قالت : لكنى خطر ببالى .
سألتها رقية : لم أر بهية منذ يومين , أهى بخير ؟
هزت زينب رأسها قائلة : نعم , لكن أختى اعترضت في النهاية على سفرها فلن تذهب معكم .
أومأت رقية برأسها متفهمة الأمر , و قامت لتحضر لها عصيرا في حين جاءت النسوة و عرفوها بأنفسهن و رحبن بها , الوحيدة التي كانت تنظر لها باستياء بسبب غطاء رأسها كانت ماجدة .

في المحطة

كان الجميع يلوحون لها قبل قيام القطار و الدموع تملأ عيونهم, أمها لم تستطع المجىء فقد انهارت تماما قبل خروج رقية , و تركوها بعد أن أخذت منوم لكى ترتاح قليلا . . . . كانت المحطة مزدحمة بشكل مفزع حتى أن الجميع كانوا يصرخون ليصل صوتهم , و مما زاد الأمر سوء أن قطارا جاء محملا بالجرحى

وصل في تلك اللحظة , فكان الناس يستقبلون و يفتشون في وجوه القادمين عن ذويهم , و الآخرون يذرفون الدمع مودعين , شعرت رقية للحظات بالخوف الشديد عندما رأت المبتورة أيديهم و أرجلهم و المصابين بإصابات خطيرة حتى أنها لم تنتبه لكلام عمتها و هي تتحدث إليها , كانت عيونها تنظر بفزع للعابرين أمامها .
أخيرا أطلق القطار صفارته معلنا بدء تحركه فتعالت الصياحات أكثر و كانت رقية تجلس بجوار النافذة تمد يدها التي أمسك بها الجميع و هم يدعون لها بحميد العودة .
و كأن القطار يمضى نحو الموت أصوات العجلات الحديدية و هي تدهس القضبان كانت تصم الآذان , كانت تنظر للخارج مشدوهة تتنفس بصعوبة و كأن الهواء لا يصل إليها , جلس أمامها رجل خمسينى تطلع إليها و سألها : أهذه أول مرة لكِ ؟
أشارت برأسها موافقة دون أن تنطق , فابتسم مطمئنا و قال : تشجعى الأمر ليس بهذا السوء , أنا الطبيب ماهر ثابت مسؤول الطب النفسى بالمستشفى الميدانى .
علقت نظرها به و هي تقول بصوت مرتعد : أنا رقية .
ثم أشارت لزميلاتها الجالسات حولها هنا و هناك و قالت : نحن الممرضات المستجدات في المشفى .
قال بوجه بشوش : ستقومون بعمل عظيم .
حاولت رقية أن تنام قليلا لكن النوم جفاها , و عندما رأت

الجميع مستسلمين للنوم فتشت في حقيبتها عن شيء يسليها فوقع نظرها على المصحف , فأمسكته بتردد و فتحته و بدأت تقرأ ما وقعت عليه عيناها (الرحمن) .
بعد خمس ساعات وصل القطار فجرا و كانت هناك عربات جيش كبيرة في انتظارهم كى تقلهم , مشت السيارات مسافة طويلة داخل الصحراء و الجميع واجمون و كأنما يساقون للموت وهم ينظرون . . . . . بعد أكثر من ساعتين توقفت السيارات و بدأ الجميع في الهبوط لتطلق رقية شهقتها الأولى و هي ترى المستشفى الميدانى الكبير و الكل يتحرك هنا و هناك من يحمل موتى و يحمل نازفين . . . . . استقبلهم طبيب كبير قائلا بسرعة شديدة : مرحبا بكم , أرجو تسجيل أسماءكم بسرعة و ترك هويتكم داخل هذه الخيمة .
ثم أشار إلى الخيمة و أكمل : ثم تلحقوا بى بسرعة داخل المشفى قبل حتى أن تضعوا ثيابكم .
مضت رقية مع زميلاتها يتقدمهم الطبيب ماهر الذى كان معهم بالقطار , و أخذ منهم المسؤول هويتهم و بصماتهم . . توجهت رقية بسرعة لحقيبتها لتخرج صابونتها لغسل يدها , فرأت ممرضة بجوارها تقول لها بنفس السرعة التي يتحدث بها الجميع: افتحى يدك بسرعة .
ثم صبت لها من زجاجة كبيرة صابون ذا رائحة كريهة للغاية و

هي تقول : هذا المطهر أفضل من أي صابون , الصنبور هناك اغسلى يدك و اتبعينا بسرعة .
عندما وقفت رقية أمام الصنبور الذى عليه طابور لكنه ينتهى بسرعة ككل شيء , كانت رائحة المطهر تكاد تقتلها , لكنها منت نفسها بأن ستضع الكريمات الخاصة بها في المساء قبل النوم .
أول ما واجهته رقية عند دخولها ارتطامها بجندى ينزف بشدة من كتفه , لقد تدربت على الأمر لكنه كان مجرد تدريب على زميلاتها , لم تكن هناك أجساد حقيقية تنزف , تستطيع أن تسعفه لكنها تخاف و بشدة , سمعت الطبيب يصيح بها : هيا يا رقية .
كانت البطاقة المعلقة على قميصها بها اسمها و فصيلة دمها و رقم الكتيبة , مثلها مثل الجميع , جرت ناحية الطبيب الذى كان تحت يده جندي مستلقى ينزف من كل مكان , بعد ثوان صاح بها الطبيب : اخرجى محتويات جيبه و ضعيهم في كيس و خيطيه بملابسه .
سألته بدهشة : لماذا ؟
قال ببساطة : لقد مات , أسرعى .
بيد مرتعشة أخرجت ما كان بجيبه و الدموع تتقاطر من عينها, كان بجيبه مصحفا صغيرا و خاتم زواج وصورة لفتاة صغيرة . . .
ارتفع صوت الطبيب قائلا : لا تبدأى في النحيب ستعتادين الأمر .

الليلة الأولى كانت هي الجحيم , فعندما حان وقت راحتها و نومها أخرجت صابونتها لتغسل يديها , و بعدما جلست على السرير الصغير و أمسكت بالكريم لتدهن يدها . . . لم تشعر بشىء إلا و صوت زميلاتها تقول : استيقظى يا رقية موعد الإفطار.
فتحت عينيها غير مصدقة ما هي فيه , و كأنها كانت تحلم , و كانت علبة الكريم بجوارها لم تفتح بعد, فنهضت و جلست على السرير تستوعب الأمر , و أخرجت من الدرج المجاور مشطها و بدأت في تمشيط شعرها بهدوء , فعادت زميلتها تصيح بها : أسرعى لقد انتهينا من الطعام .
فألقت رقية المشط بسرعة و جرت تغسل وجهها كما لم تغسله بتلك الطريقة من قبل ثم ارتدت نفس الحذاء الذى ارتدته بالأمس و لبست نفس الملابس الملقاة على السرير و عندما وصلت لمكان الطعام كان الجميع قد انتهوا , فأعطتها زميلتها نصف كوب من الشاي و باقى سندوتش و هي تقول لها : أكملى ورائى .
حاولت رقية أن تعترض فهى لا تشرب أو تأكل وراء أحد , لكن زميلتها قد مضت بسرعة و لم تترك لها الخيار .

*****

الحُروبُ تعلَّمنا أَن نحبَّ التفاصيل : شكْل مفاتيحِ أَبوابنا , أن نُمَشِّطَ حنطتنا بالرموش , ونمشي خِفَافاً على أرضنا , أَن نقدِّسَ ساعات قبل الغروب على شجَر الزَّنْزَلَخْت . . .
والحروبُ تُعَلِّمُنا أَن نرى صورة الله في كل شيء , وأَنْ نَتَحَمَّل عبء الأساطير كي نُخْرِجَ الوحشَ . . .
من قصَّة السندِيانْ . .
الشاعر الفلسطيني : محمود درويش
الغرفة الخضراء تنام وحدها في سكون , الجدران تفتقد خالتى الجميلة , سريرها , مرآتها , أشياؤها و كأنها تئن , كنت أدخل حجرتها دوما من وراءها لأستمتع برؤية جمالها و نظامها و أتشمم عطورها , ما ترشه على السرير و ما هو عالق بثيابها و ما اختارته للخادمة كى تعطر به سجادتها , كان كل شيء يتحدث عن جمالها , أما الآن الحجرة الخضراء تنام وحدها و جميع البيت يأكل في صمت , حتى جدتى نظرت إلى النتيجة في الصباح و بكت و هي تقول : غدا سترتفع حرارة رقية درجة و ستضع الثلج على رأسها و الترمومتر بفمها .
كان الكل واجما يتذكر خالتى و هي تنزل متبخترة أول يوم

للحيض و تجلس في دلال و تمد قدميها و تنظر للترمومتر بتوتر و كأنها أصيبت بالحمى , لم ينطق أحد , بل لم يكمل أحد الطعام .

في الميدان

عندما سلمها الطبيب ساق أحد المصابين قال لها و هو مستاء : أعتقد أنك بالمكان الخطأ يا رقية , هل تستطيعين تخييط ساق هذا الرجل ؟

نظرت رقية بفزع لساق الرجل التي تنزف بصورة مفزعة بينما هو يصرخ و يستغيث , فسألت الطبيب بسرعة : أين البنج ؟

ابتسم الطبيب ساخرا و قال : اعملى أيتها الجميلة دون بنج .

ثم تركها و مضى و لم تجد أمامها سوى أن تعمل . . . . كانت تخيط و هي تكتم صرخاتها بينما اعتصر المصاب الوسادة بيده و هو يعض عليها , استمرت رقية بالعمل و هي تنظر بين الحين و الآخر للجندى و ينفطر قلبها حزنا عليه , و فجأة سمعوا صوت طائرات تقترب , و أخذت الصيحات تتعالى :

اهبطوا إلى الخنادق . . . اهبطوا إلى الخنادق .

جرت الممرضات إلى الخارج بينما حمل الأطباء و الممرضون بعض المصابين إصابات خطرة , أما الجندى الذى كانت تخيط له فتحامل على نفسه و مضى مسرعا إلى الخارج , وقفت رقية مشدوهة تنظر حولها و تصرخ , فجذبها أحد الممرضين من ذراعها بقوة و هو يصيح : هيا أسرعى . . . . ثم ألقى بها في أحد الخنادق و مضى .

كانت أصوات الطائرات تصم الآذان ورأتهم فوقها تماما فأدركت أنه الموت لا محال , تجمدت أطرافها و أخذت تتمتم (الرحمن الرحمن الرحمن . . .) حتى وقعت قنبلة .

قبل أن تفتح عيونها سمعت أحدهم يسأل الآخر : كيف سمحوا لها أن تأتى إلى هنا ؟ إنها هشة للغاية , لقد رأيتها تبكى طوال الوقت .

رد الآخر : هم بحاجة لأكبر عدد ممكن , ألا ترى ما نحن فيه العدو يحاصرنا من ثلاث جهات .

عندما فتحت عيونها وجدت نفسها على سرير كانت أنفاسها تتسارع عند سماعها لجملتهم الأخيرة حتى كاد قلبها يقف و سألتهم و هي تنظر حولها فزعة : هل حقا يحاصرنا من ثلاث جهات ؟

فنظرا لبعضهما بتردد ثم قال أحدهم : هذا ما نسمعه و لكن لا ندرى الحقيقة .

ثم تركاها و مضى ,,,,, شعرت رقية بدوار و ألم بمعدتها شديد فتذكرت أنها لم تأكل شيئا منذ الصباح , فاستندت لتقوم فلمحها الطبيب و صاح بها من بعيد : أنتى في راحة لنهاية اليوم يا رقية .

فأشارت له بيدها شاكرة و تحركت حتى وصلت لمبيتها , ثم جلست و أخرجت صندوق الطعام و بدأت تقضم ببطء شديد و الدموع تتقاطر من عينيها .

في بيت النساء
جلست ماجدة أمام ماجد تنظر له بضيق و تسأله : لم أفهم ما الذى جاء بك مرة أخرى و قد انتهى ما بيننا من عمل ؟
أجابها و هو ينظر لعينيها : أخبرتك أنى أريد أن نصبح سويا .
زفرت في ضيق و سألته : ما معنى ذلك ؟
قال وصوته يملؤه الحنان : أريد أن أتزوجك .
قامت من مقعدها و صاحت به : هل جننت ؟ أنا لا أريدك و لا أريد غيرك .
وقف إلى جوارها و اقترب منها هامسا : هذا ما يقوله فمك و لا يصدقه قلبى .
قالت ساخرة : لتذهب أنت و قلبك إلى الجحيم .
سألها بمرح : و هل يرضيك ؟
نظرت له بحنق و قالت : أياك أن تصدق أنى أهتم لأمرك عندما أرسلت لك الزهور إلى البيت , هذا فقط لأنى علمت بمرضك و هي مجاملات أقوم بها مع أي أحد .
شبك أصابعه وراء ظهره و تأملها و هو يسأل بحذر : أنت حقا ترفضين الزواج؟
صدر من فمها ضحكة استهزاء و لم ترد , فعاد يقول : سوف أمهلك أسبوعا للتفكير .
ثم اقترب من الباب فقالت له : لا تمهلنى و لا يوم , لن أوافق .

نظر لها نظرة أخيرة قبل أن يمضى و هو يقول : لكنى سأنتظر لأسبوع .

في الميدان

أفرغت رقية حقيبتها على السرير بحثا عن الورقة التي أعطتها لها زينب هانم و بها رقم كتيبة زياد و عندما وجدت الورقة و قرأت الرقم تملكها الرعب أنها نفس كتيبتها , إذاً لماذا لم تقابله؟ أيمكن أن يكون حدث له مكروها ؟؟؟ طردت الفكرة بسرعة من رأسها و عبأت حقيبتها مرة أخرى و نهضت مقررة البحث عنه .
الخطوات القليلة التي كانت تفصلها عن المشفى استعادت فيها لقائتها القليلة بزياد , تذكرت ابتسامته و ذقنه و عينه التي لا تنظر إليها إلا خطأً , أخبرت نفسها أنها ستكون أفضل إن وجدته, لكن الأفكار السوداء سيطرت عليها بأن مكروها ما أصابه , فقطعت باقى الخطوات مهرولة . . . . عندما دخلت المشفى نادت عليها زميلتها : رقية ساعدينى .
وقفت لثوان تنظر نظرات خاوية إلى كل ما حولها و كأنها لا تدري , هل تتقدم أم تهرول بعيدا عن كل هذا الجحيم . . .
اللحظات بدت كدهر بالنسبة لزميلتها التي صاحت بها مرة أخرى : أسرعي يا رقية .
هذه المرة أسرعت نحوها و قامت بعمل تنفس صناعى للمصاب

لكن . . . . همست رقية : مات
ثم نظرت حولها للجثث الملقاة هنا و هناك و نسيت لما جاءت فعادت مرة أخرى إلى المبيت , و أخرجت مفاتيح بيتها تتأملها , مفتاح البوابة و مفتاح البيت و مفتاح غرفتها و الكثير تعرفهم عن ظهر قلب بمجرد اللمس , فلا حاجة بها لتنظر أي منهم يخص الباب الذى تريد فتحه . . . . المفاتيح سر أصحابها , المفاتيح ذكرياتنا . . . و حياتنا .
أثناء جلوسها و شرودها و هي ممسكة بالمفاتيح جلست بجوارها ممرضة كبيرة و ربتت على قدمها و قالت : ستعتادين الأمر , و إن أردت العودة لن يمنعك أحد .
نظرت لها رقية بلهفة و سألتها : أحقا يمكننى العودة ؟
هزت الممرضة رأسها و قالت : بالطبع فأنت متطوعة , يمكنك وضع اسمك في الراغبين بالعودة و ستمر الحافلة بعد عشرة أيام و تقلك .
قطبت رقية حاجبيها و قالت بألم : عشرة أيام ؟ يا له من عمر في هذا المكان .
أجابت الممرضة : ليس وقتا طويلا , لقد أتيت فقط بالأمس .
همست رقية : و كأنى أتيت منذ سنوات .
ثم تذكرت زياد فقررت أن تسأل عنه : هل تعرفين كل الأطباء هنا ؟

أجابت الممرضة : بالطبع .
و قبل أن تنطق رقية سمعوا غارة جديدة , فصاحت بها الممرضة و هي تجذبها : تعالى . . . هناك نفق أسفل المبيت .
كانت أصوات القنابل تحاصرهم, طارت إحدى الجثث لتقع أمامهم فكادت رقية تقف لولا أن جذبتها الممرضة , و بعد أقل من ثانية وقعت الممرضة أرضا عقب شظية أصابت قدمها , لم تفتح رقية فمها أو تصرخ كعادتها , لكنها بكل خوفها و كل ما أوتيت من قوة جذبت الممرضة من ذراعيها بقوة نحو النفق , لكن الأخيرة صاحت بها : اهربى أنتِ , أنا ليس لدى عائلة .
لم ترد رقية عليها و استمرت في سحبها و هي تنادى : يا الله لا تتركنى , أعلم أنك هنا و هناك , لا تتركنى أرجوك .
و عند وصولها للنفق كانت هناك ألف يد تمتد لتساعدها و تسحب معها الممرضة .
بعدما وقفوا بصمت يستمعون لصوت القنايل التي تدوي , قطع الصمت همس الممرضة لرقية : ممتنة لك أيتها البطلة .
نظرت لها رقية نظرة خاوية و قالت : أنا أجبن بكثير من لعب دور البطولة .
في المساء نظرت ليدها الجريحة بأسى , فأخرجت بعض الكريمات و خلطتهم و بدأت بوضعهم فشعرت و كأن نار اشتعلت بيدها , فعادت و مسحت يدها بسرعة , في تلك الأثناء قالت لها زميلتها

التي تجلس على السرير المقابل : هذه الكريمات لن تجدي , افتحي الصيدلية الصغيرة و احضري المرهم الأزرق .
تحركت رقية ببطء من شدة التعب الذي تشعر به , و بعدما وضعت المرهم , عادت زميلتها تقول :
ما رأيك لو نتناول الشاي على ضوء القمر ؟
نظرت لها رقية بدهشة و سألتها : و كيف يكون هذا ؟
أجابتها الأخيرة : عند النهر , خطوات من هنا .
صمتت رقية تفكر لثوان ثم قالت : لا بأس .
كان هناك مجموعة من الأطباء و الممرضين يثرثرون بأصوات خافتة , و يحتسون الشاي بالقرب من النهر , جلست رقية و زميلتها على مقربة منهم , و بعد دقائق أتى أحد الممرضين و أعطاهم كوبين من الشاي , فسألته رقية بعفوية : هل معلقة سكر واحدة ؟
فضحك الرجل و قال : اشربيه ملعقتين حتى عودتك بالسلامة .
هزت رأسها بخجل و قالت : أشكرك .
ثم سمعت أحد الجالسين يقول : سأغنى لكم الليلة أغنية الحلوة و البحر .
فصفق له الجميع , و بدأ يدندن أغنيته و هو يخبط على صينية الشاي . . . لم تكن رقية منتبهة لكلمات الأغنية و لا لشىء , كانت تفكر في أمها و كريم و فدوى و مادلين و عمتها ماجدة , تمنت لو

أن كل هذا كان كابوسا , ندمت على عنادها و أقسمت إن عادت ستترك العناد نهائيا .
لكن ما حدثت به نفسها أثناء جلوسها أن الرجال ليسوا جميعا تلك الكائنات البشعة التي تحدثت عنها أختها و عمتها , نظرت لزميلتها و سألتها : هل أنتِ متزوجة ؟
قالت الممرضة : بل مخطوبة .
ثم أشارت إلى الرجل الذى قدم لهما الشاي و قالت : هو خطيبى, فضحكت رقية لأول مرة و قالت : إذاً ذكريه في المرة القادمة أن يضع ملعقة سكر واحدة لى .
ضحكت الممرضة و سألت رقية : و أنت مخطوبة ؟
حركت رأسها نافية , فنظرت لها الممرضة بدهشة و قالت : لكنك شديدة الجمال , و يبدو عليك الثراء , لم لا توافقين على أحد ؟
فكرت رقية أنه ما من أحد تجرأ على الاقتراب من بيتهم ولو لمرة, فقد كانت ترفض أي تلميح أو عرض من أي مخلوق , و عندما حاولت صديقة أمها ذات مرة طلب يدها لابنها كان رد أمها : لا تفسدى صداقتنا بهذه الأمور .

في الصباح بمجرد أن سمعت جرس بوق الاستيقاظ نهضت مسرعة و أخرجت حذاء جديدا من حقيبتها و مشطت شعرها و هي ترتديه , ثم جرت ناحية الصنبور و غسلت وجهها بسرعة

و وضعت المعجون على فرشة الأسنان و فرشت أسنانها و هي ترتدى باقى ثيابها في نفس الوقت , و انتهت من كل هذا في أقل من ست دقائق .
توجهت إلى خيمة الطعام و كانت مكتظة على آخرها بالأطباء و الممرضين و الجنود المصابين , كان أكثر ما يهمها أن تشرب الشاي, فتوجهت بسرعة ناحية الغلاية و وضعت الماء و السكر و الشاي, ثم بحثت بعينيها عن شيء تأكله غير الفول و الجبن لكنها لم تجد فحملت الكوب حتى المبيت و أخرجت صندوق المقرمشات و بدأت تأكل .
عندما توجهت إلى المشفى أخبرها الطبيب أن تركب السيارة التي تقف بالخارج لتتوجه بها إلى القسم الآخر , شعرت رقية بالضيق و توجهت إلى السيارة في صمت فأشار لها السائق أن تجلس بالخلف , ثم جاء ممرض و جلس معها و تحركت السيارة مبتعدة, لكن عندما وصلت وجدت المكان أكثر هدوء , على الأقل لم تكن الجثث في كل مكان . . . . دخلت القسم الجديد و كان صغيرا لدرجة أنها لمحت زياد بمجرد دخولها , و لم تشعر بنفسها إلا و هي تجرى نحوه و تقف منه على بُعد خطوة و تهمس : أخيرا وجدتك .
كان زياد ينظر في إحدى التقارير و بمجرد أن سمعها ألقى به على السرير و ابتسم ابتسامة واسعة وكأنه يحتضنها بابتسامته و قال

بلهفة : روكا الجميلة هنا .
و كأن الدم عاد يسرى بجسدها فقالت بحماس : أنا هنا منذ يومين .
قال بدهشة : كيف ؟ لقد تركت اسمك لدى الطبيب الكبير و طلبت منه أن يرسلك فور مجيئك , حتى أنى اعتقدت أنك لم تأت, شعرت رقية بالسعادة لأنه كان يفكر بها فقالت بخجل : يبدو أنه نسى و تذكر منذ قليل .
أجلسها زياد على مقعد قريب و قال لها : العمل هنا أخف وطأة, إننا فقط في هذا القسم نحاول تجميع أشلاء الموتى و أشيائهم ليتعرف إليهم ذويهم .
ابتلعت رقية ريقها و قالت : الموتى ؟؟؟؟
ضحك قائلا : الأمر ليس بهذا السوء , هناك أيام لا يموت فيها أحد, و البعض تكون أجسادهم سليمة فنضع فقط معهم أشياءهم فلا داعى للخوف .
صمتت رقية باستسلام فهمس له : لدينا هنا القهوة , سأصنع لك فنجان بدون وجه فأمى أخبرتنى أن قهوة الجميلات ليس لها وجه .
سألته بدهشة : لماذا ؟
فقال مازحا : تستحي القهوة من وجه الجميلات فتختفي .

*****

بعد أن ندخل في تجارب جديدة و نقابل أشخاصا جديدة لا يمكن أن نعود مثلما كنا أبدا .

معكم من بيت الأحزان كريم أشرف , نعم بيت الأحزان فهناك أمور كثيرة حدثت بعد رحيل خالتى , لقد مرت تلك العشرة أيام و كأنها سنين , فمادلين فجأة قررت بالأمس أن تزور أهلها ببيروت, أولئك الذين لم ترهم منذ سنوات طوال و ها هي تُعد حقيبتها للسفر خلال أيام , أما العمة ماجدة فلم تأكل معنا منذ ثلاثة أيام و سمعتهم يقولون أنها مكتئبة لأن هناك رجلا تقدم لخطبتها و عندما رفضت خطب أخرى في اليوم التالى مباشرة , و تقول مادلين أنه أخطأ في فعل هذا لأن العمة ماجدة كانت تحتاج الكثير من الأمان لكى توافق , كما أنها تجزم أن ماجدة كانت متعلقة به كثيرا و لكن كبرياءها كان يمنعها . . . أما أمى فلا تبرح غرفة خالتى و كثيرا ما أراها تتأمل أشياءها و تبكى , و أخيرا جدتى لم تعد تبرح سجادة الصلاة و لا تترك القرآن من يدها.

ليت خالتى الجميلة المدللة تعود لتعود معها بهجة البيت و ضحكاته المفقودة .

في الميدان

في الصباح عندما قامت رقية من نومها قبل أن تسمع البوق و ذهبت لغسل وجهها و أسنانها تذكرت أن زياد أخبرها عن كيفية الوضوء , فأحبت أن تتوضأ في ذلك اليوم لكنها لم تصل , ارتدت ملابسها و نظرت لساعتها فوجدت الوقت مازال باكرا و العربة التي ستقلها للقسم عند زياد لن تأتى قبل نصف ساعة , فرأت أن تقطع الطريق سيرا على الأقدام و حملت معها المصحف كإحساس بالأمان . . . . كانت الحركة بسيطة في البداية مما أثار خوفها و جعلها تقبض على المصحف و هي تسأل الله أن يحفظها بكلمات أخبرها بها زياد . . . . أثناء الطريق تذكرت كيف علمها زياد فى تلك الأيام أشياء كثيرة في الإسعافات و العناية بالمرضى , و كيف كان يدعمها نفسيا عندما كانت ترى جثة قتيل , و كان يقدم لها القهوة بنفسه عندما يرى عليها الإجهاد , و يخبرها الكثير من القصص و الحكايات عما رآه في الحرب . . . . لقد كان أنيسا لها حتى أنها لم تشعر بمرور الوقت , حدثت نفسها أن أول يومين مروا كدهر بينما مرت الثمانية أيام معه كلحظات . . . . عندما اقتربت استحثت أقدامها وكأنها تطير , لكن عندما دخلت كان المكان خاليا إلا من ثلاث جثث . . . جلست على مقربة ورأت أن هويتهم و أشياءهم مخاطة معهم فأدركت أن ما من شيء تفعله, فأمسكت بالمصحف و بدأت تقرأ بصوت مسموع . . . . بعد

دقائق سمعت قهقهة زياد , فنظرت له بضيق و سألته : أتسخر منى ؟ ألم تخبرني أن السخرية حرام !
رفع يده معتذرا و قال : أقسم أنى لا أسخر , و لكن من يتتعتع في القرآن له أجران , لكن عندما سمعتك و أنا قادم لم أكن أتخيل أنك بالأصل تقرأين لغة عربية , لقد ظننتك تتسلين بقصة فرنسية ثم عاد يضحك قبل أن يرفع يده للاعتذار مرة ثانية و يقول : سأذهب إلى النار بسببك , أعلم هذا .
نظرت له مبتسمة و قالت : و لم لا تعلمنى القراءة الصحيحة و تذهب إلى الجنة .
حملق بها لثوان قبل أن يقول : ليكن ونذهب معا إلى الجنة .
ثم دار بعينيه خجلا في أنحاء الغرفة قبل أن ينظر لها و يجدها محملقة به , فحاول أن يفسر : سأعلمك فأفوز بالثواب , و ستتعلمين فتجيدين القراءة , و هكذا ندخل الجنة سويا .
سألته بخبث : و هل هناك اختلاط بالجنة ؟
حك ذقنه و نظر للأرض و قال و هو يبتعد عنها : الأزواج .
ثم اقترب من إحدى الجثث و لم يعد يتكلم , فشعرت بضربات قلبها تتسارع و همست بصوت لا يسمعه سواها : لم أكن أعلم أن الحياء يجمل الرجال .
في المساء استقطع زياد وقتا و جلس يعلمها قراءة القرآن , و بعدما انتهى سألها : هل جربت الصلاة ؟

فهزت رأسها نافية و قالت : لا , فقط جربت الوضوء .
فتبسم ضاحكا من قولها و همس لها بود : تتوضئين و لا تصلين يا جبارة ؟!
هزت كتفيها و سألته بدهشة : ألم تخبرنى أن الوضوء له ثواب ؟!
قال : نعم , و لكن تتبعه الصلاة , لم أتخيل أنك تودين أن تتعلمى الوضوء للوضوء .
قالت ببساطة : لقد توضأت اليوم ثلاث مرات , و دعوت الله أن يتقبل .
لم يتمالك نفسه من الضحك و قال و هو يغالب ضحكه : يتقبل ماذا ؟
أجابت ببراءة : الوضوء .
فعاد يضحك و قام من مكانه و هو يشير لها بالنهوض قائلا : هيا يا رقية لتعودى للمبيت , و الله لن تقتلنى الحرب بل أنت من ستقضين علي .
سارا متجاورين في صمت لكن أنفاسه كانت مسموعة , لدرجة أنها شعرت أنه يريد أن يتكلم و انتظرت بصبر كلمة منه لكنه عندما تكلم كانا قد وصلا و سألها : لماذا كنتِ صامتة ؟
قالت برقة : أنا هنا تلميذة أتعلم و أستمع .
على جانب شفته لمعت ابتسامته و قال : التلميذ أيضا يسأل ليتعلم أكثر .

نظرت إلى الأرض بخجل و قالت : هذا إن ترك المعلم له المجال ليسأل , لكنك تجيب حتى على الأسئلة التي لم تخطر ببالى .
وضع كفيه على وجهه محاولا أن يخبىء ما يجيش في صدره حتى أنها سألته : ما الأمر ؟
أنزل يده و أدار ظهره قائلا : لا شيء مجرد ألم بالرأس , أراكِ صباحا بإذن الله .
و عندما ابتعد خطوات كانت هي مازالت واقفة تحملق به , شعر بها فنظر ناحيتها و ابتسم و هو يشيح لها لتبتعد و يقول : ستقضين علي , ادخلى للمبيت .
لوحت له و استدارت و قلبها يحلق لأول مرة في حياتها .
جلست رقية على سريرها و فتحت حقيبتها و أخذت تنظر لأشياءها التي لم تستعملها و ليدها التي صارت خشنة من كثرة استعمال الصابون و المطهرات , فاستاءت من منظرها و تمتمت : هل هذه يد أنثى , لديه حق ألا يخبرنى بحبه .
ثم ملأت كف يدها بالكريم و عرت ساقيها و أخذت تدلك حتى غلبها النوم . . . . . و فى الصباح قامت و توضأت و سألت زميلتها: كيف نصلى ؟
فحركت الأخرى كفيها و قالت : لا أعلم .
نظرت لها رقية بدهشة و قالت : ألم تصلى من قبل ؟
ردت عليها زميلتها بضيق : مثلك لا أعرف الصلاة , هل هناك ما

يُدهش ؟
اعتذرت رقية و أخذت مصحفها و مضت للقسم . . . وصلت متأخرة هذا الصباح و رأت زياد يركب سيارة و يمضى فلم تستطع اللحاق به , دخلت و أعدت الشاي بسرعة و هي تقرأ التعليمات التي تركها لها , و بعد وقت قليل بدأت أصوات غارة جديدة و هي التي لم تسمع صوت الغارات منذ انتقالها للقسم , نظرت حولها فرأت الجميع يهرولون و لكن هي لا تعرف إلى أين , فجرت معهم و أصوات الطائرات بكل مكان , ثم بدأ القصف. . .
اشتعلت خيمة كان الجميع يجرون باتجاهها , ففروا بعيدا على غير هوادة و تفرقوا هنا و هناك . . . أما هي فشعرت أنها أحيط بها فوقفت تصرخ , فصاح بها طبيب و هو يشدها : اختبئى فى أي خندق , لكن الرصاص حصد الطبيب و اخترقت كتفها رصاصتان فوقعت و لم تشعر بنفسها .
فى ذلك الوقت كان زياد لتوه واصلا إلى القسم الآخر , و قد رأى بعينه الطائرات و هي تحلق هناك و تقصف المكان , فشعر بقلق شديد حتى أنه أنهى عمله بسرعة و قبل أن يعود جاءته الأخبار أن زميله الطبيب قد وافته المنية , زميله هذا لم يكن مجرد زميل بل هو صديق الطفولة و زميل الدراسة و صاحبه بالحرب , وقع الخبر عليه كصاعقة , فعاد مهرولا ليجلس باكيا أمام جثمان صديقه . . . . . . مر الوقت و هو فى حالة سيئة يتابع

عمله صامتا و الدموع تملأ عينيه , و فجأة تذكر أنه لم ير رقية اليوم , فسأل الممرض : هل جاءت رقية قبل الغارة ؟

فكر الممرض قليلا ثم أجاب : لا أذكر قبل أم بعد , و لكنى رأيتها اليوم .

إجابته قتلت زياد فإن كان رآها اليوم فأين هي ؟! خرج زياد من القسم و نادى على ممرضتين تعرفانها و سألهم نفس السؤال , فأجابت إحداهما : رقية قد أصيبت و نقلوها إلى المشفى الرئيسى.

سأل زياد بسرعة و القلق يملأ قلبه : كيف هي إصابتها ؟

هزت الممرضة رأسها و أجابت : لا نعلم و لكنها تبدو إصابة خطيرة .

لم يكن بوسع زياد أن يترك القسم و يمضى فى هذه الظروف , دخل يعمل و القلق يقتله و كلما نظر لجثمان صديقه دعا له بالرحمة و هو يشعر أنه يتمزق ما بين حزنه الشديد على صاحبه و قلقه الرهيب على رقية . . . . . مضت الساعات ببطء رهيب و كأنما يتآمر عليه الوقت . . . لم يكن هناك حتى وقتا للراحة ليطمئن عليها , و بعد ست ساعات أتاه طبيب كدعم من المشفى, فسأله زياد عن رقية , لكن الطبيب نظر له بدهشة و قال : لا أعرفها .

صمت زياد و لم يعرف ماذا يقول , و بعد وقت وكأنما تذكر الطبيب فعاد يسأل زياد : هل هي تلك الممرضة فائقة الجمال التي تبدو كنجمة سينما ؟

استاء زياد بشدة لهذا الوصف , لكنه كتم الأمر و هو يقول بحزم: غفر الله لنا , نعم هي .

تأمله الطبيب بدهشة ثم قال : لديها تهتك فى عظام الكتف , هي تقريبا لا تستيقظ من شدة الألم .

لم يتحمل زياد أكثر من هذا فقال مسرعا : هي قريبتى , هل يمكننى تركك لساعة واحدة لأطمئن عليها ؟

نظر له الطبيب بخبث و هو لا يصدق أنها بالفعل تقرب لزياد لكنه قال و فمه معوج : تفضل بالطبع , و لكن لا تتأخر .

نادى زياد على السائق و ركبا بسرعة و استحث السائق قائلا : أسرع من فضلك .

عندما وصل سأل بسرعة على مكانها فأشاروا له ناحية سريرها , توجه مسرعا إليها فوجدها بين اليقظة و النوم يصدر منها أنينا متصلا , أمسك بالتقرير الموجود على السرير و قرأه ثم طلب من الممرضة أن تكتب اسم رقية فى المطلوبين للنقل بسرعة فى حافلة الغد .

لم تشعر به إلا و هو يهم بالمغادرة بعد مرور ساعة فهمست بضعف : لا أستطيع تحمل الألم .

ربت على يدها بعفوية و قال : هناك حافلة طوارئ ستأتى غدا كتبت اسمك لتكونى بها .

نظرت له طويلا قبل أن تغيب عن الوعى مرة أخرى .

فى عصر اليوم التالى جاء زياد من القسم فى وقت مجىء الحافلة و أمسك بذراع رقية يساعدها على النهوض , كانت تسير ببطء شديد و الدموع تتساقط منها أما زياد فكان يحنو عليها و يهمس لها : تحركى ببطء كما يحلو لك و لا تجهدى نفسك , ستنتظرك الحافلة و لو لعام .

نظرت له شاكرة و لم تستطع الرد حتى إذا ما وصلت الحافلة حركت فمها لتتكلم لكنه لم يسمع شيئا فاقترب بأذنه منها و هو يقول : تكلمى أسمعك .

فقالت بصوت خافت : متى ستعود ؟

نظر إليها لبرهة ثم أجاب : فقط خمسة أيام و سأزورك بالبيت .

أعلن سائق الحافلة أنهم سيتحركون فودعها زياد و وقف بالأسفل يلوح لها حتى ابتعدت الحافلة و غابت عن الأنظار .

بمجرد وصول رقية توجهت إلى المشفى و باتت هناك ليلة تحت رعاية طبية و لم تشأ أن تخبر أهلها حتى لا يفزعهم الأمر العودة

كان الجميع يجلسون بغرفة مادلين يودعونها وهي تغلق حقيبتها و تستعد للسفر , و فجأة أشار لهم كريم بالصمت , فسألته جدته : ما الأمر ؟

فهمس : و كأن صوت خطوات خالتى .

ضحكت فدوى و قالت : تهلوس حبا لرقية .

سرحت مادلين و هي تنظر خارج النافذة و تقول : ليتنى أراها و لو للحظات قبل السفر .
لكن الجميع انتبهوا بالفعل للصوت الذى أصبح على بعد خطوات, نظروا خارج الغرفة و صاحوا جميعا فى فرح و فزع و هم ينظرون لكتفها : حبيبتى .
ثم ألتفوا حولها يقبلون رأسها و يدها , فتألمت عندما ارتطموا بها دون قصد , فاعتذروا و أجلسوها على السرير , بدأت أمها الكلام قائلة : ما الأمر يا حبيبتى كيف حدث هذا ؟
قالت بصوت ضعيف : سأقص عليكم كل شيء غدا فأنا متعبة للغاية .
اقتربت منها مادلين و قالت بصوتها الحنون : أحمد الله أنى رأيتك قبل سفرى .
نظرت لها رقية بدهشة و سألت : إلى أين يا مادلين ؟
قالت مادلين : شهر فقط أزور أهلى فقد اشتقت لهم و اشتاقوا لى .
أومأت رقية لها و هي تشعر بالضيق لافتقادها لأقرب صديقة لها لكنها همست : سأكون دوما بانتظارك .
فضحكت مادلين قائلة : سأعود , لقد بال عصفورى هنا .
فضحكوا جميعا و ودعوا مادلين , ثم أوصلوا رقية لغرفتها و وضعوا أشياءها كما تحب , أما أمها فأعدت لها الطعام بسرعة

و جلست بجوارها على السرير تطعمها بفمها و الجميع حولها ينظرون إليها بفرح شديد , عندما اكتفت رقية من الطعام أشارت لأمها بيدها أن تتوقف , فنظرت أمها ليدها الخشنة الجريحة و صاحت : ما الذى حدث ليدك أيضا ؟

أجابت رقية : لا شيء يا أمى .

أمسكت أمها بيدها و قالت : يداك خشنتان للغاية , ماذا فعلوا بك يا حبيبتى ؟

ثم أجهشت بالبكاء , فربتت رقية على يد أمها و هي تقسم لها قائلة : أقسم لك لا يوجد شيء , أنا فقط لم يكن لدى وقتا لوضع الكريم .

صاحت الأم من بين دموعها : ألهذه الدرجة ؟

أومأت رقية لها بحنان ثم ألقت برأسها للخلف و استسلمت للنوم , فخرجوا جميعا و أطفأوا نور الغرفة و تركوها ترتاح .

بال العصفور : بمعنى أنها يجب عليها العودة لتعلقها بالمكان .

*****

الإنتظار ينهك القلب . . . يذيب الروح . . . و يهلك الجسد .
مراسلكم من بيت النساء كريم أشرف و أنا الآن جالس بين نساء البيت فى لقاء صحفى , ها هي أمى تشوح لى بيدها باستياء , فلنقترب و نسألها ماذا تريد : مرحبا أمى ما الأمر ؟ ألم أخبرك أنى سأقوم بلقاء إذاعى معكم ؟
فدوى : ما هذا الذى تفعله يا كريم ؟ , و من أين لك بهذا الميكروفون ؟
أمى لا تفسدى اللقاء و أجيبي , ما أحساسك إزاء عودة خالتى رقية إلى البيت ؟
فدوى تضع يدها على رأسها و تفكر و هي مبتسمة ثم تصيح : سعيدة سعيدة سعيدة للغاية .
سؤال آخر , ما إحساسك بعد أن أعتذر لكِ أبى عن كل ما فعله معك من قبل و وضع مبلغا كبيرا فى حسابك مقابل ما أنفقتيه فى السنوات السابقة ؟
تفكر فدوى قليلا ثم تجيب بهدوء : لا بأس من أن نسامح بعضنا, أشعر بالسعادة لكلام أمى و أتوجه الآن إلى جدتى الحبيبة : مرحبا جدتى , ما أحساسك إزاء عودة خالتى رقية إلى البيت ؟

جدتى : تسألنى ما إحساسى إزاء عودة روحى إلى البيت ؟؟؟ إنها طفلتى المدللة , إنها الجمال يمشى على قدمين , إنها الضحكة التي غابت عن البيت و عادت بعودتها .
أشكرك جدتى , و الآن مع العمة ماجدة : ما أحساسك إزاء عودة خالتى رقية إلى البيت ؟
تنظر ماجدة لى و للميكروفون و تقول : يبدو أنك ستصير صحفيا, و على أية حال أنا أشعر بالراحة لعودة ابنة أخى و جلوسها بيننا, فقد افتقدت عراكى معها و تجاهلها لكلامى الحاد , فهى عن جد فتاة مهذبة .
و الآن مع جميلة جميلات خالتى رقية : و ما إحساسك إزاء كل من بالبيت ؟
ترد مبتسمة ابتسامة مجهدة للغاية : حبيبى لا معنى للحياة بدونكم .

*****

بعدما أنهى كريم حواره جلس بجوار خالته و وضع رأسه على قدميها و أغمض عينيه استسلاما , فأخذت تلعب بشعره بيدها السليمة كما عودته . . . . بعد قليل دق جرس الباب فقامت ماجدة لتفتح فرأت أمامها ماجد , وقفت هذه المرة صامتة و لم تصرخ بوجهه , فسألها : هل يمكننى الدخول ؟
أشارت له ليدخل , فألقى التحية على الجميع و دخل إلى الصالون.
استهل كلامه قائلا : أقسم لك أن كل ما سمعتيه كذب , أنا لم أخطب و لن أخطب أو أتزوج سواك .
عادت ماجدة لصمتها فأكمل : ببساطة لأنى أعلم أنك بحاجة لوقت , و كل ما تريديه هو الأمان كما أخبرتنى مادلين .
و هنا صاحت ماجدة : مادلين ؟ هل تكلمتما ؟
أجاب ماجد : مادلين تحبكم كثيرا و تتمنى لكم الخير , لقد جاءت إلي من أول يوم جئتك فيه و سألتنى إن كنت أحبك بصدق , و عندما أخبرتها أنى أحبك فوق ما تتخيلين , طلبت منى أن أصبر عليك و أتحمل كل ما تتفوهين به , و أخبرتنى دون تفاصيل أن لك ذكريات سيئة مع أرملك , لذا عزمت على أن أبقى حتى لو طردتينى ألف مرة .
نظرت له ماجدة فى صمت , فعاد يقول : هل تتزوجينى ؟

هذه المرة قالت : دعنى أفكر .
فابتسم و قال : ألن أشرب شايا هذه المرة أيضا .
فقامت من مكانها و أشرعت باب الصالون و أشارت له و هي تقول : ستتناول الغداء معنا أولا .
بعد مرور خمسة أيام جاءت زينب هانم لبيت رقية و كانت تحمل الكثير من الحلوى , أجلستها رقية بسعادة و سألتها عن أحوالها , فردت زينب : الحمد لله , لا ينقصنى غير رؤية زياد .
طمأنتها رقية و قالت : ربما يأتي اليوم فقد أخبرنى أنه لن يتأخر .
نظرت لها زينب بحنان و ربتت على يدها و هي تقول : إن شاء الله خير .
لم تفهم رقية جملتها فعادت تقول : نعم خير , أنا كنت معه منذ ستة أيام و أخبرنى أنه سيلحق بى بسرعة .
لم تتكلم زينب و ظلت صامتة و هي تتأمل رقية , الأمر الذى جعل رقية تشعر بالقلق فسألت : هل هناك شيء ؟
ردت المرأة و هي تغالب دموعها : كم رقم هاتف الكتيبة التي بها ابنى ؟
دق قلب رقية بقوة أثر السؤال , فردت سؤلا بسؤال : أخبرينى أولا ما الأمر ؟
فرت دمعة من عين زينب رغما عنها و هي تقول : لقد اتصل بى أول أمس و أخبرنى أنه سيركب بعد ساعات , و بعدها هاتفنى

رجل أخبرنى أنه زميله , و أن زياد يعتذر عن القدوم لأن الكتيبة تم ضربها و الإصابات لا حصر لها , لكن قلبى لا يصدق , لا يصدق أبدا .

شعرت رقية بدوار شديد و حاولت تهدئة زينب لكنها لم تجد كلمة تقولها , كل ما فعلته أنها جلست مشدوهة لا تنطق . . .,. جاء الجميع و تساءلوا عن الأمر فأجابت زينب أنه لا شيء و استأذنت و انصرفت . . . . لكن رقية لم تتحرك من مكانها , كل ما كان يقلقها تلك الكلمة الأخيرة (لكن قلبى لا يصدق) .

فى الصباح كانت رقية تسعل بقوة و ارتفعت درجة حرارتها و عندما جاء الطبيب أخبرهم أنها حمى و يجب نقلها على الفور للمشفى .

جلست رقية فى المشفى يومين و ساءت حالتها فى اليوم الثانى, و عندما كانت تأخذ حقنة فتحت عينيها فوجدت بهية هي من تعطيها الحقنة فصرخت رقية بصوت عال : ابتعدى عنى , ابتعدى عنى .

و فى اليوم الثالث عندما استيقظت كانت أمها و كريم بجوارها , كانت أمها تقرأ القرآن بينما كريم يتأمل خالته كالعادة , سألت رقية : فى أي يوم نحن ؟

أجابها كريم : السبت .

قالت بدهشة : هل مر ثلاثة أيام ؟

أجاب : نعم .
نظرت لأمها تسألها : هل من أخبار عن زياد ؟
حركت الأم رأسها نافية و قالت : لا تقلقى سيعود قريبا .
لكن قلب رقية مثل قلب زينب لا يصدق .
عندما جاءت الممرضة سألتها رقية : هل غضبت منى بهية ؟
تعجبت الممرضة و قالت : من هي بهية ؟
أجابت رقية : التي أعطتنى الحقنة .
ابتسمت الممرضة قائلة : يبدو أنها هلوسة الحمى , فأنا التي أعطيك الحقنة .
بمجرد أن أتمت الممرضة جملتها دخلت ماجدة الغرفة و هي تبدو عليها سعادة لم يرها أحد من قبل و قالت : الفستان الأزرق السماوى الذى اشتريتيه منذ فترة و لم تلبسيه , ما أخباره ؟
سألتها رقية بدهشة : بخير يا عمتى و يسلم عليكِ , ما الأمر ؟
أجابت ماجدة بخجل : أريدك أن ترتديه الشهر القادم فى خطبتى.
صاحت الجدة بفرحة : حقا يا ماجدة .
ثم احتضنتها و باركت لها و هي تقبلها و تقول : أخيرا سنفرح .
رد كريم بسخرية : و هل الرجال فرحة ؟!, سترك يا رب .
فضربته ماجدة فى كتفه و هي تقول : احترم نفسك يا كريم .
باركت لها رقية و هي تقول : أتمنى أن تصبح يدى بخير لأساعدك على ارتداء فستانك .

مرت الأيام ثقيلة على رقية حتى أنها لم تعد تنظر لمرآتها و تجلس أغلب الوقت فى غرفتها تنظر من النافذة , و إذا خرجت ذهبت لبيت زياد لتجلس مع زينب هانم التي علمتها الصلاة , فبدأت رقية تصلى و تقرأ القرآن يوميا , و ذات مساء عندما كانت تجلس مع زينب إذا ببهية تدخل عليهما و الدموع تملأ عينيها , فسألتها زينب بفزع : ما الأمر ؟

لم تنطق بهية و أجهشت بالبكاء , فهزتها زينب بقوة و صاحت: تكلمى .

نقلت بهية نظرها ما بين خالتها و رقية ثم قالت : فريد ابن عمى استشهد بالأمس .

كتمت زينب صرختها و أخذت تردد : سترك يا الله , سترك يا الله.

أخذت زينب بهية في أحضانها و هي تهمس لها لتواسيها ببعض الكلمات حتى تهدأ , و بعدما هدأت قليلا قامت زينب من مكانها ببطء و هي تقول : سأتناول الدواء .

نظرت بهية لرقية بضيق فأشاحت رقية بوجهها عنها , فقالت بهية و هي تمسح دموعها : أنا لا أبكي من أجل فريد رحمه الله, أنا لم أخبر خالتي بالحقيقة , فالمرعب بالأمر و ما يهمنى و لم

أبوح به أن فريد مات منذ شهر و لم يعلموا بالخبر غير أمس , و فريد بنفس كتيبة زياد .
وقفت رقية و نظرت بغضب إلى بهية و صاحت بها : ماذا تريدين منى ؟ زياد سيعود و كفاكِ هذا الشؤم .
بغيظ قالت بهية : الشؤم حل معك أيتها المتبرجة , فالشيطان يمشى بذيل المرأة التي ترتدى تلك الملابس القصيرة و تعرى ذراعيها .
قررت رقية أن تضايقها ببرود فقالت : عندى الكثير من الجمال لأظهره , لدى جسد جميل و شعر حريرى يثير حقد جميع النساء أمثالك ممن لا نعرف كيف يبدون وراء هذا الساتر .
و هنا ظهر الغضب على وجه بهية و خلعت حجابها فتساقط شعرها الأسود الثقيل اللامع الذى طال قدميها فظهر الانبهار على وجه رقية و هي ترى جمال بهية التي كانت حقا اسما على مسمى فقالت رقية منبهرة : و لم تخفين جمالك ؟
ردت بهية باقتضاب : طاعة لله و ليس نقصا فى جمالى .
بمجرد أن جاءت زينب هانم حملت رقية حقيبتها و خرجت من البيت , رغم محاولات زينب لتستبقيها قليلا و لكنها أصرت حتى لا يظهر عليها علامات الحزن فتقرأها زينب.
عندما عادت رقية إلى المنزل كان فى استقبالها مفاجأة سارة , لقد عادت مادلين من بيروت وليس هذا فقط بل كان بيدها خاتم الخطبة , فقد تمت خطبتها لابن عمها الذى كان مهاجرا

إلى أمريكا و قد اتفقا على أن تنهى أعمالها بمصر و تسافر له و يتزوجا هناك , كانت رقية شديدة الفرحة لفرحة مادلين و قالت لها بسعادة : أتمنى لك كل السعادة لأن قلبك يحب كل الناس .
و بدأت مادلين و رقية يعدون أنفسهن لحفلة ماجدة بالغد , فذهبتا سويا لصالون التجميل و اشتريا كل ما ينقصهما و ساعدوا ماجدة على إكمال باقى ما تحتاج إليه , لكن فى المساء جذبت مادلين رقية لغرفتها و أجلستها على السرير و سألتها : ما الأمر ؟ لست رقية التي أعرفها , لقد تبدل حالك , أين بشاشتك و إقبالك على الحياة .
صمتت رقية و سقطت دموعها فصاحت بها مادلين : لا تبدأى حياتك بالبكاء , اسمعى يا رقية العلاقة التي تجعلك تبكين لا تكمليها .
ردت رقية بصوت متهالك : هو نفسه لم يبكينى , لقد عمل دوما على سعادتى .
ردت مادلين : لكن اختفاءه جعلك حزينة , لا تحبيه لهذه الدرجة فتندمى .
نظرت لها رقية بدهشة و قالت : أنتِ من تقولين هذا ؟ لكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير فيه , أنا أموت بدونه .
صاحت بها مادلين : لا , لن تموتى بدون أحد , اعتادى على إسعاد نفسك , إذا هاجمتك ذكراه انفضيها بسرعة و ستعتادين عدم

التفكير كما اعتدت التفكير به .
قالت رقية متعجبة : كيف أستطيع أن أصير غيري , كيف أمنع قلبي من الخفقان ؟
أجابت مادلين بقوة : بالاصرار ستنسيه تماما .
سألتها رقية بخوف : ماذا يحدثك قلبك ؟ هل سيعود ؟
عوجت مادلين فمها و هي تفكر ثم عادت تبتسم و تقول : أتمنى أن تكونا سويا قبل أن أسافر .
لكن رقية لم تقتنع هذه المرة بكلام مادلين أبدا .

*****

و كانت الحفل أكثر من رائعة فقد كان الجميع سعداء و طلب كريم من عمته أن تقوم بدعوة والده للحفل ففعلت و دعت رقية زينب هانم و ذهبت بنفسها لبيتها لتحضرها , و استمر الحفل حتى وقت متأخر ,وأثناء الحفل كانت رقية شاردة و ليست كعادتها ,فاقتربت منها أمها و قالت بحنان : سيعود يا حبيبتي و ستفرحين , الله لن يحرم قلبك من الفرحة .

سقطت الدموع من عين رقية فمسحتها بسرعة عندما رأت زينب هانم تقترب منها و تقول : العقبى لكِ .

شكرتها رقية و حاولت بصعوبة أن تستبقيها حتى انتهاء الحفلة,ثم أوصلتها للبيت و قبل أن تنزل زينب من السيارة التفتت تنظر لرقية و تسألها : ماذا يقول قلبك ؟

على الرغم منها ابتسمت رقية و قالت : يؤكد لى أنه سيعود .

فباغتتها قائلة : هل تتزوجيه إن عاد ؟

فاكتسى وجه رقية بالحمرة و السعادة فى ذات الوقت و لم ترد , فضحكت زينب و قالت : إذاً الصمت علامة القبول .

فتحت زينب الباب فسألتها رقية : هل أوصلك إلى الداخل ؟

ابتسمت زينب و قالت : الوقت تأخر , كفاك تعبا .

ثم لوحت لها و مضت . . . .
عندما عادت رقية أخبرت مادلين بما قالته زينب هانم , ففكرت لبرهة ثم قالت : هذه المرأة اطمأنت على ابنها .
هتفت رقية بفرح : حقا؟
سارت مادلين فى الغرفة ذهبا و إيابا و قالت و كأنها تفكر بصوت عال : لا يمكن لامرأة قلقة على ابنها أن تتحدث فى تلك الأمور , من المؤكد أنها اطمأنت .

*****

لكن الأيام مضت و لم يثبت صحة كلام مادلين . . . . . و فى ذات نهار خريفى تساقطت فيه أوراق الشجر الصفراء و الحمراء خرجت رقية تدفع بالمقشة الأوراق المتكدسة أمام البوابة و جاءت مادلين من الخارج و أخبرتها أنها انتهت من تصاريح السفر أخيرا, فاحتضنتها رقية فهمست لها مادلين : كونى قوية ثلاثة أشهر تكفى لتفهمى , حتى و إن تعلقت أمه بالأمل فهى أمه , لا تضيعى عمرك أيتها الجميلة .

انهارت رقية تجلس على رصيف البيت تجهش بالبكاء و بدأت تتساقط فوق رأسها تلك الأوراق الملونة . . . حاولت مادلين أن تجعلها تقف لكنها رفضت و قالت بإصرار : دعينى وحدى أرجوك .

كانت رقية على يقين من انتهاء الأمر , و أن زياد لن يعود , لكنها لم تتوقف للحظة عن الصلاة و الدعاء , و كانت تخبر نفسها بأن عدم وجود أخبار هو بحد ذاته أمل يستحق الانتظار .

مضت مادلين للداخل و هي مستاءة مما قالته لرقية . . . . أما رقية فحملقت فى الطريق الخالى أمامها و لم تعبأ بالأوراق المتساقطة, حتى ظهرت أمامها فجأة عربة زينب هانم , فمسحت دموعها

و قامت تستقبلها , لكن العربة عندما اقتربت شعرت رقية أن زياد هو من بداخلها فتسمرت مكانها و أخذت تدلك عينيها غير مصدقة حتى عندما وقفت العربة أمامها و ترجل منها أخذت تنظر له و لم تنطق , أما هو فوضع يده خلف ظهره و قال مبتسما : أخبرتنى أمى أنك وافقت فجئت لأتأكد .

كاد قلبها أن يقف من شدة الفرحة لكنها أبت أن توضح له الأمر فسألت و هي تغالب ابتسامتها : عن أي شيء تتحدث ؟

قال بخبث : أن تعودى للميدان .

فضحكت و قالت : سأسأل أمى .

فأشار لها لتدخل و هو يقول : سأسألها بنفسى .

و عندما رأته أمها و علمت أنه زياد رحبت به بفرح شديد و فتحت له ذراعيها , فقالت رقية محذرة : أمى , إن زياد حتى لا يسلم على النساء .

فضحك زياد و احتضنها و هو يقول : لكن الحماة أم .

*****

مسار
للنشر و التوزيع

01020439639